

الأمير المذبح وفوق الذبيحة المبتكر

لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم ابن تیمیة
المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

حَقَّقَ

الدكتور صلاح الدين المنجد

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

عن دار الكتاب الجديد

بيروت ، ١٩٧٦ - ١٣٩٦ هـ

من كلام شيخ الاسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة
فی الأمر بالمعروف والنهي عن المنکر

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو حسبي

ان من المزايا التي تفرّد بها الاسلام : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقد أرسل الله تعالى رسوله ، صلوات الله عليه ، للناس كافة ليأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، حسب الشريعة التي انزلها . فقام الاسلام كله على هذا « الأمر » بنوعينه . فالاسلام كله « معروف » يجب اتباعه ، فإذا خرج الناس عن هذا « المعروف » أو خالفوه ، أتوا « بمنكر » ينبغي النهي عنه . فهو لا يمكن ان يُعرف إلا بهذا « الأمر » . لذلك من الواجب معرفة معنى « المعروف » ، ومعنى « المنكر » ، ثم معرفة معنى « الأمر » بهما ، وطرقه ، ومجالاته ، وحدوده ، ومن يحقّ لهم القيام به .

ولا أعلم أحداً من العلماء فصلّ الكلام في هذا الموضوع ووضّحه كشيخ الاسلام ابن تيمية . فقد تكلم فيه كلام عالم خبير ، لا يغيب عنه من الشريعة ، قرآناً وسنة ، ومن آثار السلف وأعمالهم ، شيء . فأحسن فيما كتب وأجاد ، واستطرد في الكلام حتى أحاط بالموضوع ودقائقه ، ولم يدع شيئاً تجب معرفته إلّا نوّه به أو ذكره ، ورسالته « في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » دليل ساطع على ما نقول .

ولا يبدو ابن تيمية في رسالته مفسّراً ومحدثاً وفقهاً وأصولياً ، فقط ،

بل نراه عالماً نفسياً يحلل أهواء النفس الانسانية وطباعها على اختلافها ، في حبها وبغضها ، وأمرها ونهيها ، وكبرياتها وبغيبها ، وكرمها وشحها ، وشجاعتها وجبنها وغير ذلك ، ويبين أسباب هذه الأهواء والطباع ، كما نراه عالماً اجتماعياً ، يشير إلى بعض قوانين علم الاجتماع . وعلى الجملة فإن رسالته تعتبر من جيد ما جاد به فكره الشامل الخصب .

وما ذكره في رسالته ، طبقه في سيرته وأعماله ، طول حياته . فقال بسببه من العداوات والأذى ما هو معروف . وكان في أمره ونهيه دائماً شجاعاً جريئاً صابراً ، لا يخشى أحداً .

وكنت أؤمن قراءة رسالة شيخ الاسلام هذه ، وأجد في قراءتها كل مرة أموراً جديدة . وكنت أوصي الكثيرين من الطلاب والمثقفين الراغبين في فهم الاسلام ، والكثيرين من علماء الدين ، بقراءتها وفهمها واتباع ما جاء فيها . فهي خير دليل لكل مسلم إلى الطريق القويم .

نشر هذه الرسالة قبل عشرين عاماً (١٩٥٦) صديقنا الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله ، في كتاب جمع رسائل كثيرة مختلفة سمّاه « شذرات البلاتين من طبيّات كلمات سلفنا الصالحين » . وقد نفذت نسخ هذا المجموع ، وصعب على الطلاب الذين كنت أنصحهم بقراءة الرسالة ، أن يجدوها .

لذلك رأيت إعادة نشرها .

وقد اعتمدت في النشر على مخطوطة في خزانتنا ، ضمن مجموع اشتمل على كثير من رسائل شيخ الاسلام ، سبق أن نشرنا منه كتاب « الأعلام العلية في

مناقب شيخ الاسلام ابن تيمية ، للحافظ أبي حفص البزار .

وهي الرسالة العاشرة في المجموع . تقع في ١٥ ورقة ، كتبت بخط نسخي عادي ، وجاء في عنوانها :

من كلام شيخ الاسلام

تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وجاء في آخرها : هذا آخر كلام الشيخ رضي الله عنه .

« نقله من أصل قديم الفقير لعفوة ربه موهوب بن احمد بن هلال الصالح الحنبلي ، غفر الله ذنوبه بمنه وكرمه . ووافق الفراغ منه سلخ سنة اربعين وثمانماية بالمدرسة الجوزية بدمشق . والحمد لله رب العالمين وهو حسبي ونعم الوكيل .

لم أجد ترجمة لكاتب النسخة . ويدل اسمه أنه كان من الحنابلة ، وقد كتبها بالمدرسة الجوزية بدمشق . وهي المدرسة التي أنشأها العلامة محيي الدين يوسف بن الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي ، المتوفى سنة ٦٥٦ هـ . وكان سفيراً للخلفاء العباسيين ، إلى بني ايوب . وقد حصل من ملوك الأيوبيين أموالاً بنى بها هذه المدرسة . وقُتل مع الخليفة المستعصم على يد هولاء ، عندما هاجم بغداد . وكان قد وقف المدرسة على الحنابلة ^(١) .

(١) انظر النعمي : تنبيه الطالب ١٩/٢ وما بعدها . وقد زالت هذه المدرسة . وقد حددنا موقعها في « مخطط دمشق القديمة » ، رقم ٦٩ ؛ وعن سفارات الشيخ محيي الدين الى ملوك الأيوبيين انظر كتابنا : التاريخ الدبلوماسي في الاسلام .

وتغلب على النسخة الصّحة ، وقد ذكر ناسخها أنه نقلها من أصل قديم ،
والأخطاء التي فيها لا شأن لها .

وقد قارنا نصّ نسختنا بالنص الذي نشره الفقي رحمه الله . فوجدنا في
نسختنا زيادة هامّة تتعلق بتحديد المعروف والمنكر ، لا توجد في المطبوعة .
وهناك اختلاف في بعض الألفاظ ، أشرنا إليها في الهوامش .

وقد قسّمنا النص وجعلنا لأقسامه عنوانات تُسهّل معرفة موضوعاته .
ونسأل الله أن ينفع به ، وأن يجعل عملنا كله صالحاً ، ولوجهه خالصاً .

صلاح الدين المنجد

بيروت ١٩٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا . من يهتد الله فلا مضل له ، ومن يضل فلا هادي له .

وأشهد أن لا إله الا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أرسله بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله . وكفى بالله شهيدا . صلى الله عليه وآله ، وسلم تسليماً .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي أنزل الله به كتبه ، وأرسل به رسله ، وهو من الدين . فإن رسالة الله إما إخبار وإما إنشاء . فالإخبار عن نفسه عز وجل^(١) وعن خلقه ، مثل التوحيد ، والقصاص الذي يندرج فيه الوعد والوعيد . والإنشاء : الأمر والنهي والإباحة .

وهذا كما ذكر في الحديث أن « قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن »^(٢) . لتضمنها الثلاث التي هي التوحيد . لأن القرآن توحيد وأمر وقصاص^(٣) .

(١) « عز وجل » ساقطة من ف

(٢) رواه البخاري في باب فضائل القرآن ، باب فضل قل هو الله أحد . ولفظه : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن .

(٣) ف « اذ القرآن قصص وتوحيد وأمر » .

[الأمر بالمعروف عند نبينا ، والأنبياء السابقين]

وقوله : سبحانه في صفة نبينا ﷺ (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث) (١) هو بيان لكمال رسالته ، فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ، ونهى عن كل منكر ، وأحل كل طيب ، وحرم كل خبيث . ولهذا روي عنه ﷺ أنه قال : « إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق » (٢) . وقال في الحديث المتفق عليه : « إنما مثلي ومثل الأنبياء كمثلي رجل بنى داراً فأتمتها (اب) وأكملها ، إلا موضع لبننة ، فكان الناس يطيفون بها ، ويعجبون من حسنها ، ويقولون : لولا موضع اللبننة . فأنا تلك اللبننة » (٣) .

فيه أكمل الله الدين المتضمن للأمر بكل معروف ، والنهي عن كل منكر ، وإحلال كل طيب ، وتحريم كل خبيث .

وأما من كان قبله من الرسل فقد كان يحرم على أممهم بعض الطيبات ، كما قال الله تعالى : (فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ) (٤) ، وربما لم يحرم عليهم جميع الخبائث ، كما قال تعالى :

(١) سورة الأعراف ، ٧ ، الآية ١٥٧ .

(٢) انظر الموطأ ، حسن الخلق ٨ ، ومسنند أحمد ٣٨١/٢ ، وفيه : « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » .

(٣) رواه الترمذي في الأمثال ٧٦/٨ ، والبخاري في صفة النبي ، ومنهم في فضائل النبي . وانظر مسند أحمد ٢٤٤/٣ .

(٤) سورة النساء ، ٤ ، الآية ١٦٠ .

('كلُّ الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل ، إلا ما حرّم إسرائيلُ على نفسه ، من قبل أن تُنزل التوراة ') (١) .

وتحريم الخبائث يندرجُ في معنى النهي عن المنكر ، كما أنّ إحلال الطيّبات يندرجُ في الأمر بالمعروف . لأنّ تحريم الطيّبات هو (٢) مِمّا نهى الله عنه ، وكذلك الأمرُ بجميع المعروف والنهي عن كلّ منكر لم (٣) يتمّ إلاّ لرسول الله ، الذي تسمّى الله به مكارم الاخلاق المنطوية (٤) في المعروف . وقد قال الله تعالى (اليوم أكملتُ لكم دينكم ، وأتممتُ عليكم نعمتي ، ورضيتُ لكم الاسلامَ ديناً) (٥) . فقد أكمل الله لنا الدين ، وأتمّ علينا النعمة ، ورضيَ لنا الاسلامَ ديناً .

[هذه الأمة خير الأمم للناس]

وكذلك وصف الأمّة بما وصف به نبيّها حيث قال : (كنتمُ خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٦) ، وقال تعالى : (٢٢ آ) (والمؤمنونَ والمؤمناتُ بعضهم أولياء بعضٍ ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) (٧) .

(١) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ٩٣

(٢) ساقطة من ف

(٣) ف « مما لم يتم »

(٤) ف « المندرجة »

(٥) سورة المائدة ، ٥ ، الآية ٣

(٦) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١١٠

(٧) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ٧١

ولهذا قال ابو هريرة رضي الله عنه « كنتم خير الناس للناس ، تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة » .

فبيّن الله سبحانه أنّ هذه الأمة خير الأمم للناس ، فهم أنفعهم لهم ، وأعظمهم إحساناً إليهم ، لأنهم كلّ خير ونفع للناس بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ^(١) ، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم . وهذا كمال النفع للخلق .

وسائر الأمم لم يأمرُوا كلّ أحد بكلّ معروف ، ولا نهوا كلّ أحد عن كلّ منكر ، ولا جاهدوا على ذلك ، بل منهم من لم يجاهد ، والذين جاهدوا كبني اسرائيل فعامة جهادهم كان لدفع عدوهم عن أرضهم ، كما يُقاتل الصائل الظالم ، لا لدعوة إلى الهدى والخير ، ولا لأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، كما قال موسى لقومه : (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ، ولا تتردّوا على أديباركم فتتقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين ، وإنّا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فإن يخرجوا منها فإنّا داخلون . - الى قوله - : قالوا يا موسى لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فاذهب أنت وربك فقاتلا ، إنّنا ههنا قاعدون) ^(٢) . وقال تعالى : (ألم تر إلى الملائكة من بني اسرائيل من بعد موسى (٢ ب) إذ قالوا لنبيّ لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله . قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ؟

(١) في ف زيادة : « من جهة الصفة والقدر ، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد » .

(٢) سورة المائدة ، ٥٥ ، الآيات ٢١ - ٢٤ .

قالوا : وما لنا أن لا نُقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا .
فلما كتب عليهم القتالُ تولّوا إلا قليلاً منهم ، والله عليمٌ بالظالمين (١) .
فمَلَلُوا القتالَ بأنّهم أخرجوا من ديارهم وأبنائهم ، ومع هذا كانوا ناكلين عَمَّا
أمرُوا به من ذلك . ولهذا لم تحِلْ لهم الغنائم ، ولم يكونوا يطأون بملك
اليمن .

ومعلوم أن أعظم الأمم المؤمنين قبلنا هم بنو اسرائيل ، كما جاء في الحديث
المتفق على صحّته في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ
قال : « عُرِضَتْ عليّ البارحة الأنبياء بأممهم . فجعل النبيّ يمرّ ومعه الرجل ،
والنبيّ ومعه الرجلان ، والنبيّ ومعه الرهط ، والنبيّ وليس معه أحد . ورأيت
سواداً كثيراً ، - وفي رواية : فإذا الظُّراب (٢) ممتلئة بالرجال - . فقلت :
هذه أمتي ! فقيل : هؤلاء بنو اسرائيل . ولكن انظر هكذا وهكذا .
فرأيتُ سواداً كثيراً قد سدّ الأفق . قيل : هؤلاء أمتك ، ومع هؤلاء
سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب . فتفرّق الناس ولم يبيّن لهم .
فتذاكر أصحاب النبي ﷺ فقالوا : أمّا نحن فولدنا في الشرك ، ولكنّا آمنّا
بالله ورسوله . ولكن هؤلاء ابناؤنا . فبلغ النبي ﷺ فقال : هم الذين لا
يَكْتَوُونَ ، ولا يَسْتَرْقُونَ ، ولا يَنْطِيتُونَ (٣) وعلى ربّهم
يتوكّلون . فقام عكاشة بن محصن (٤) فقال : أمنهم أنا يا رسول الله ؟

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ٢٤٦ .

(٢) الظراب الجبال الصغار ، واحدها ظرب بوزن كثف (النهاية ١٥٦/٣) .

(٣) من فضلاء الصحابة ، شهد بدرأً واحداً والحنديق وسائر المشاهد مع رسول الله . توفي في

خلافة ابي بكر . (الاستيعاب ١٠٨٠/٣) .

قال : نعم . فقام آخر فقال : أمنهم أنا ؟ فقال : سبقك بها عكاشة ، ^(١) .

ولهذا كان إجماع هذه الأمة حجة ، لأن الله تعالى قد أخبر أنهم يأمرون بكل معروف ، وينهون عن كل منكر . فلو اتفقوا على إباحة محرّم أو إسقاط واجب أو تحريم حلال أو إخبار عن الله تعالى أو خلقه بباطل ، كانوا مُتّصِفِينَ بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ليس من الكلم الطيّب والعمل الصالح ، بل الآية تقتضي أن ما لم تأمر به الأمة فليس من المعروف ، وما لم تنه عنه فليس من المنكر . إذ كانت آمرة بكل معروف ناهية عن كل منكر ، فكيف يجوز أن تأمر كلها بمنكر ، أو تنهى كلها عن معروف ؟

والله سبحانه وتعالى كما أخبر بأنّها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله (وَلِتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) ^(٢) .

وليس من شرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ^(٣) أن يصل أمرُ الأمر ونهي الناهي الى كل مكلف في العالم . إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة ، فكيف يُشترط فيها هو من توابعها ؟ بل الشرط أن

(١) رواه البخاري في كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كوي ، ولفظه اتم بما ورد هنا . -
ومسلم في الايمان الحديث ٣٧١ ، ٣٧٤ .

(٢) سورة آل عمران ٣٠ ، الآية ١٠٤ .

(٣) ف « وإذا أخبر الله بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها لم يكن من شرط ذلك أن يصل ... » .

يتمكن المكلفون من وصول ذلك اليهم ، ثم إذا فرطوا فلم يسموا في وصوله اليهم ، مع قيام فاعله بما يجب عليه ، كان التفريط (٣ ب) منهم لا منه .

ولا يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل أحد بعينه ^(١) ، بل هو على الكفاية كما دلّ عليه القرآن .

ولمّا كان الجهاد من تمام ذلك ، كان الجهاد هو كذلك . فإذا لم يقم به مَنْ يقوم بواجبه أثم كلّ قادر بحسب قدرته . إذ هو واجب على كلّ انسان بحسب قدرته . كما قال النبي ﷺ « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده » ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان ^(٢) .

وإذا كان كذلك ، فمعلوم أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإتمامه بالجهاد هو من أعظم المعروف الذي أمرنا به .

[ما هو المعروف ، وما هو المنكر]

ومن النهي ^(٣) عن المنكر إقامة الحدود على مَنْ خَرَجَ من شريعة الله .

ويجب على اولي الأمر : وهم علماء كل طائفة وأمرائها ومشايخها أن يقوموا على عامتهم ويأمروهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر فيأمرؤهم بما أمر الله به ورسوله . مثل شرائع الاسلام وهي الصلوات الخمس في مواقيتها ، وكذلك الصدقات المشروعة ، والصوم المشروع ، وحج البيت الحرام ، ومثل الايمان

(١) ف « وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجب على كل أحد .. » .

(٢) رواه مسلم في الايمان ، ٧٨ ، ٦٩/١ .

(٣) من هنا ساقط في ف .

بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والايان بالقدر خيريه وشره ،
ومثل الاحسان وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

ومثل ما أمر الله به ورسوله من الأمور الباطنة والظاهرة (٤ آ) ، ومثل
إخلاص الدين لله ، والتوكل على الله ، وأن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما
سواهما ، والرجاء لرحمة الله والخشية من عذابه ، والصبر لحكم الله ، والتسليم
لأمر الله . ومثل صدق الحديث ، والوفاء بالعهود ، وأداء الأمانات إلى أهلها ،
وبرّ الوالدين ، وصلة الأرحام ، والتعاون على البرّ والتقوى ، والاحسان إلى
الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل ، والصاحب والزوجة والمملوك ، والمدل
في المقال والفعال ، ثم التذنب إلى مكارم الأخلاق ، مثل أن تصل مَنْ قَطَعَكَ ،
وَتُعْطِي مَنْ حَرَمَكَ ، وتَعْفُو عَنِ ظَلَمِكَ .

ومن الأمر بالمعروف كذلك الأمر بالانتلاف والاجتماع ، والنهي عن
الاختلاف والفرقة ، وغير ذلك .

وأما المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله فأعظمه الشرك بالله ، وهو أن
يدعو مع الله إلهاً آخر كالشمس والقمر والكواكب ، أو كملك من الملائكة ،
أو نبي من الأنبياء أو رجل من الصالحين ، أو أحد من الجن ، أو تمائيل
هؤلاء أو قبورهم ، أو غير ذلك مما يُدعى من دون الله تعالى ، أو يستغاثُ
به ، أو يُسجد له . فكل هذا وأشباهه من الشرك الذي حرّمه الله على لسان
جميع رسله .

ومن المنكر كل ما حرّمه الله ، كقتل النفس بغير الحق ، وأكل أموال
الناس بالباطل ، بالغصب أو الربا أو الميسر ، والبيع والمعاملات التي نهى عنها

رسول الله ﷺ ، وكذلك قطيعة الرحم ، وعقوق الوالدين ، وتطيف المكيال والميزان ، والإثم ، (٤ ب) والبغي . وكذلك العبادات المبتدعة التي لم يشرعها الله ورسوله ﷺ . وغير ذلك ^(١) .

[ليكن امرك بالمعروف ، بالمعروف]

والرفق سبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولهذا قيل :

ليكن أمرك بالمعروف ، بالمعروف ، ونهيك عن المنكر غير مُنكَر .

[في الأمر بالمعروف لا بد ان تكون المصلحة راجحة]

واذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم الواجبات أو المستحبات لا بُدَّ ان تكون المصلحة فيها راجحة على المفسدة . إذ بهذا بُعثت الرُّسُلُ ، ونزلت الكتب . والله لا يحب الفساد ، بل كلُّ ما أَمَرَ الله به هو صلاح . وقد أثنى الله على الصالح والمصلحين ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذمَّ الفساد والمفسدين في غير موضع . فحيث كانت مفسدة الأمر والنهي أعظم من مصلحته ، لم يكن مما أمر الله به ، وإن كان قد ترك واجبٌ وفعل مُحَرَّم . إذ المؤمن عليه ان يتقي الله في عباد الله ، وليس عليه هُدام . وهذا من معنى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضلَّ اذا اهتديتم) ^(٢) ، والاهتداء إنما يتم بأداء الواجب . فإذا قام المسم بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كما قام بغيره من الواجبات ، لم يضره ضلال الضال .

(١) الى هنا ينتهي الساقط من المطبوعة .

(٢) سورة المائدة ، ٥٥ ، الآية ١٠٥ .

[كيف يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

وذلك يكون ثارةً بالقلب ، وثارةً باللسان ، وثارةً باليد . (٢٥) .

فأما القلبُ فيجب بكلِّ حال . اذ لا ضَرَرَ في فعله ، ومَنْ لم يفعله فليس هو بمؤمن ، كما قال النبي ﷺ « وذلك أدنى ، أو أضعف الإيمان »^(١) .

وقال : « ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل »^(٢) .

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه : مَنْ مَيَّتُ الأحياء ؟ فقال : الذي لا يعرف معروفاً ولا يُنكر منكرًا .

وهذا هو المفتون الموصوفُ بأنَّ قلبه كالكوزُ مُجَخَّياً ، في حديثُ « حذيفة بن اليمان ، رضي الله عنهما في الصحيحين » « تُعَرَّضُ الفتنُ على القلوب عرضَ الحَصِيرِ . الحديث »^(٣) .

[واقع الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر]

وهنا يغلط فريقان من الناس .

فريق يترك ما يجب عليه من الأمر والنهي ، فأويلا لهذه الآية كما قال

(١) في سنن ابن ماجه ، ابواب الفتن ٣٣٧/٦ : « من رأى منكراً فليُنكره بيده ، ومن لم يستطع فبلسانه ، ومن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » ، وأخرجه احمد ومسلم في الإيمان ، والنسائي وابن ماجه في كتاب الفتن .

(٢) انظر صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، الحديث ٨٠ ، ٧٠/١ ؛ وصحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة ، ولفظه : يقال للرجال ما أعقله وما أظرفه وما أجده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان » .

(٣) انظر صحيح مسلم ، باب كتاب الإيمان ، الحديث رقم ٢٣١ ، ١٢٨/١ .

ابو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبته : « أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) ، وإنكم تضعونها على غير موضعها . وإنني سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » (١) .

والفريق الثاني : من يريد أن يأمر وينهى ، إما بلسانه وإما بيده مُطلقاً ، من غير فقه ولا حلم ولا صبر ولا نظرية فيما يصلح من ذلك وما لا يصلح ، وما يُقدر عليه وما لا يُقدَّر (ه ب) ، كما في حديث أبي ثعلبة الخشني : سألت عنها - أي الآية - رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مُطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، ورأيت أمراً لا يدان لك به ، فعليك بنفسك ، ودع عنك أمر العوام ، فإن من ورائك أيام الصبر ، الصبر فيهنّ مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهنّ كأجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله » (٢) .

فيأتي بالأمر والنهي معتقداً أنه مطيع لله ولرسوله ، وهو مُعتدٍ في حدوده ، كما نصب كثير من أهل البدع والأهواء نفسه للأمر والنهي ، كالخوارج والمعتزلة والرافضة وغيرهم ممن غلط فيما آتاه الله من الأمر والنهي والجهاد وغير ذلك ،

(١) رواه الترمذي في كتاب الفتن : باب ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغيّر المنكر . ولفظه ... « وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله .. » ٣٣٥/٦ .

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الفتن ، ولفظه كما ورد هنا حق قوله : لا يدان لك به ، ثم قال : فعليك بخويصة نفسك . فإن من ورائكم أيام الصبر ، الصبر فيهنّ على مثل قبض على الجمر ، للعامل فيهنّ مثل أجر خمسين رجلاً يعملون بمثل عمله » ١٣٣١/٢ .

وكان فسادہ أعظم من صلاحہ (۱) .

[يجب الصبر على جور الأئمة]

ولهذا أمر النبي ﷺ بالصبر على جور الأئمة ، ونهى عن قتالهم ما أقاموا الصلاة ، وقال : أدوا إليهم حقوقهم ، وسلوا الله حقوقكم ، (۲) .

[قتال الأئمة عند أهل السنة والمعتزلة]

ولهذا كان من أصول أهل السنة والجماعة : لزوم الجماعة وترك قتال الأئمة ، وترك القتال في الفتنة .

وأما أهل الأهواء كالمعتزلة فيرون القتال للأئمة من أصول دينهم .

وتجعل المعتزلة أصول دينهم خمسة : التوحيد الذي هو سلب الصفات ، والعدل الذي هو التكذيب بالقدر ، والمنزلة بين المنزلتين ، وإنفاذ الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي فيه قتال الأئمة (۳) .

[القاعدة التي تتبع في الأمر والنهي]

وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد ، والحسنات والسيئات ، أو تراحت ، فلأنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا

(۱) قوله : فيأتي بالأمر .. الى صلاحه ، أضيف في الهامش .

(۲) رواه الترمذي في كتاب الفتن ، باب : ما جاء في الأئمة ۳۵۱/۶ : والبخاري في علامات النبوة والفتن ، ومسلم في المغازي ، وأحمد ۳۸۴/۱ .

(۳) في ف بعد ذلك : وقد تكلمت على قتال الأئمة في غير هذا الموضع .

ازدحت المصالح والمفاسد (٢٦) وتعارضت المصالح والمفاسد .

فإن الأمر والنهي - وإن كان متضمنًا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة - فيُنظرُ في المعارض له . فإن كان الذي يفوت من المصالح ، أو يحصل من المفاسد أكثر ، لم يكن مأمورًا به ، بل يكون مُحَرَّمًا إذا كانت مفسدته أكثر من مصلحته .

[يجب رد كل شيء الى ميزان الشريعة]

لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة . فحق قدر الانسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها ، وإلا اجتهد رأيه لمعرفة الأشباه والنظائر ، وقل أن تغوز النصوص من يكون خبيراً بها وبدالاتها على الأحكام .

وعلى هذا إذا كان الشخص والطائفة جامعين بين معروف ومنكر ، بحيث لا يفرقون بينها ، بل إما أن يفعلوها جميعاً ، أو يتركوها جميعاً ، لم يحز أن يؤمروا بمعروف ولا أن ينهوا عن منكر . بل يُنظر ، فإن كان المعروف أكثر أمر به ، وإن استلزم ما هو دونه من المنكر . ولم ينه عن منكر يستلزم تقويت معروف أعظم منه . بل يكون النهي حينئذ من باب الصدّة عن سبيل الله ، والسعي في زوال طاعته وطاعة رسوله ﷺ عليه وسلم ، وزوال فعل الحسنات .

وإن كان المنكر أغلب ، نهى عنه . وإن استلزم فوات ما هو دونه من المعروف ، ويكون الأمر بذلك المعروف المستلزم للمنكر الزائد عليه أمراً بمنكر ، وسعيًا في معصية الله ورسوله (٦ ب) .

وإن تكافأ المعروف والمنكر المتلازمان لم يؤمر بهما ولم ينه عنها . فتارة

يصلح الأمر ، وقارة يصلح النهي ، وقارة لا يصلح أمرٌ ولا نهْيٌ حيث كان المعروف والمنكر متلازمين . وذلك في الأمور المعينة الواقعة .

وأما من جهة النوع فيؤمر بالمعروف مطلقاً ، ويُنهى عن المنكر مطلقاً .

وفي الفاعل الواحد والطائفة الواحدة يؤمرُ بمعروفها ويُنهى عن منكرها ، ويُحمد محمودها ، ويُذم مذمومها ، بحيث لا يتضمّن الأمر بمعروف فوات معروف أكبر منه ، أو حصول منكرٍ فوقه . ولا يتضمّن النهي عن المنكر حصول ما هو أنكر منه ، أو فوات معروف أرجح منه .

وإذا اشتبه الأمرُ استبان المؤمنُ حقَّ يتبيّن له الحق ، فلا يقدم على الطاعة إلا بعلمٍ ونية ، وإذا تركها كان عاصياً . فتركُ الواجب معصية ، وفعلُ ما نُهي عنه من الأمر معصية . وهذا باب واسع . ولا حول ولا قوة الا بالله .

ومن هذا الباب ترك النبي ﷺ لعبد الله بن أبيّ بن سلول وأمثاله من أئمة النفاق والفجور ، لما لهم من أعوان . فإزالة المنكر بنوع من عقابه مستلزمة إزالة معروف أكثر من ذلك بغضب قومه وحياتهم ، وينفور الناس إذا سمعوا أن رسول الله ﷺ يقتل أصحابه . ولهذا لما خطب الناس في قضية الإفك بما خطبهم به ، واعتذر عنه ، وقال له سعد بن معاذ قوله الذي أحسن فيه حي له سعد بن عبادة ، معُحسّن إيمانه وصدقه - ، وتعصّب لكلّ منهم قبيلة حتى كادت تكون فتنة (٢٧) .

[الحب للمعروف يكون موافقاً لحب الله ..]

وأصل هذا أن تكون محبة الإنسان للمعروف وبغضه ، وإرادته لهذا وكرهته لهذا ، موافقاً لحب الله وبغضه ، وإرادته وكرهته الشرعيين ، وأن

يكون فعله للمحبوب ، ودفعه للمكروه ، بحسب قوّته وقدرته . فإنّ الله لا يكلّف نفساً إلّا وُسْعَهَا ، وقد قال : (فاتّقوا الله ما استطعتم) (١) .

[حب القلب وبغضه]

فأما حبّ القلب وبغضه ، وإراداته وكرهاته فينبغي أن تكون كاملة ، جازمة . لا توجب نقص ذلك إلّا بنقص الايمان . وأما فعل البدن فهو بحسب قدرته .

ومنى كانت ارادة القلب وكرهاته كاملة تامّة ، وفعل العبد معها بحسب قدرته ، فإنّه يُعطى ثواب الفاعل الكامل . فإنّ من الناس من يكون حبه وبغضه لا بحسب محبة الله ورسوله ، وبغض الله ورسوله . وهذا من نوع الهوى ، فإن اتّبعه فقد اتّبع هواه (ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه بغير هدى من الله) (٢) ، فإنّ أصل الهوى هو محبة النفس ، ويتبع ذلك بغضها .

[حقيقة الهوى]

والهوى نفسه ، وهو الحب والبغض الذي في النفس ، لا يُلام العبد عليه . فإن ذلك لا يملكه ، وإنما يُلام على اتّباعه ، كما قال تعالى (يا داود إنّنا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ، فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ) (٣) ، وقال تعالى : (ومن أضلّ ممّن اتّبع هواه

(١) سورة التغابن ، ٦٤ ، الآية ١٦ .

(٢) سورة القصص ، ٢٨ ، الآية ٥٠ .

(٣) سورة ص ، ٣٨ ، الآية ٢٦ .

بغير هدى من الله (١) ، وقال النبي ﷺ : ثلاث مُنجيات : خَشْيَةُ اللَّهِ في السرِّ والعَلانية ، والقَصْدُ في الفقر والغنى ، وكلمة الحق في الغضب والرضى . وثلاث مُهلكات : شحّ مطاع ، وهوى متَّبِع ، (٧ ب) وإعجابُ المرء بنفسه .

والحبّ والبغض يتبعه ذوق عند وجود المحبوب والمبغوض ، وَوَجْدُ وإرادة وغير ذلك . فمن اتبع ذلك بغير أمر الله ورسوله فهو بمن اتبع هواه بغير هدى من الله ، بل قد يتأدى به الأمر الى أن يتخذ الهه هواه .

[إلتباع الأهواء في الديانات السابقة]

واتباع الأهواء في الديانات أعظم من اتباع الأهواء في المشتبهات ، فإنّ الأوّل حال الذين كفروا من أهل الكتاب والمشرّكين ، كما قال تعالى (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنّهم يتبعون أهواءهم ، ومن أضلّ ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين) (٢) . وقال تعالى : (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ . كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير عِلْمٍ ، فَتَنْ هِدْيَ مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ، وما لهم من ناصرين) (٣) . وقال تعالى : (وقد فصلّ لكم ما حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ . وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ

(١) سورة القصص ، ٢٨ ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة القصص ، ٢٨ ، الآية ٥٠ .

(٣) سورة الروم ، ٣٠ ، الآيات ٢٨ ، ٢٩ .

علم . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١) . وقال تعالى : (قُلْ يَا أَهْلَ
الْكِتَابِ ، لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا
مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ) (٢) . وقال تعالى :
(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ . قُلْ إِنَّ هُدَى
اللَّهِ هُوَ الْهُدَى ، وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ
اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (٣) . وقال في الآية الأخرى : (وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ
أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ (٢٨) إِنَّكَ إِذَا لَمْ نِ الظَّالِمِينَ) (٤) .
وقال تعالى : (وَأَنْ أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ،
وَاحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ) (٥) .

ولهذا كان مَنْ خرج عن موجب الكتاب والسنة ، من المنسويين إلى
العلماء والعباد ، يُحمل من أهل الأهواء ، كما كان السلف رحمهم الله يسمّونهم
« أهل الأهواء » .

وذلك أَنَّ كُلَّ مَنْ لم يتَّبِع العلم فقد اتَّبِع هواه . والعلم بالدين لا يكون إِلَّا
بهُدَى اللَّهِ الَّذِي بَعَثَ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ . ولهذا قال الله تعالى في موضع : (وَإِنَّ
كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ) (٦) ، وقال في موضع آخر : (وَمَنْ

(١) سورة الأنعام ، ٦ ، الآية ١١٩ .

(٢) سورة المائدة ، ٥ ، الآية ٧٧ .

(٣) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١٢٠ .

(٤) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١٤٥ .

(٥) سورة المائدة ، ٥ ، الآية ٤٩ .

(٦) سورة الأنعام ، ٦ ، الآية ١١٩ .

أضلّ مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ (١) .

[حب الانسان وبغضه يجب أن يكونا موافقين لأمر الله ورسوله]

فالواجب على العبد أن ينظر في نفس حبه وبغضه ، ومقدار حبه وبغضه ، هل هو موافق لأمر الله ورسوله ؟ وهو هدى الله الذي أنزله على رسوله ﷺ ، بحيث يكون مأموراً بذلك الحب والبغض ، لا يكون متقدماً فيه بين يدي الله ورسوله . فإن الله تعالى قد قال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدَمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ) (٢) .

وَمَنْ أَحَبَّ أَوْ أَبْغَضَ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ففیه نوعٌ من التقدّم بين يدي الله ورسوله . ومجرد الحب والبغض هوى ، لكن المحرّم منه اتباع حبه وبغضه بغير هدى من الله . ولهذا قال الله لنبيه داود : (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ) (٣) .

فأخبر أن مَنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ أَضَلَّ ذلك عن سبيل الله . وسبيل الله هو هده الذي بعث به رسوله ، وهو السبيل إليه (٨ ب) .

[ما هو العمل الحسن]

وتحقيق ذلك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من أوجب الأعمال

(١) سورة القصص ، ٢٨ ، الآية ٥٠ .

(٢) سورة الحجرات ، ٤٩ ، الآية ١ .

(٣) سورة ص ، ٣٨ ، الآية ٢٦ .

وأفضلها وأحسنها . وقد قال تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (١) . وهو كما قال الفضيل بن عياض (٢) ، رحمه الله : أخلصه وأصوبه . فإن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السُنَّة . فالعمل الصالح لا بُدَّ أن يُراد به وجه الله تعالى ، فإنَّ الله تعالى لا يقبل من العمل إلّا ما أريد به وجهه وحده ، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « يقولُ الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك . مَنْ عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا بريء منه ، وهو كلّهُ لِشْرِكِي أَشْرَكَ » (٣) .

وهذا هو التوحيد الذي هو أصلُ الاسلام . وهو دين الله الذي بعث به جميع رسله . وله خُلق الخلق ، وهو حقّه على عباده أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً .

والعمل الصالح الذي أمر الله به ورسوله هو الطاعة . فكل طاعة عمل صالح ، وهو العمل المشروع المسنون ، لأنه هو المأمور به أمرًا إيجاباً أو استحباباً . فهو العمل الصالح ، وهو الحسن ، وهو البرّ ، وهو الخير . وضدّه

(١) سورة الملك ٦٢ ، الآية ٢ .

(٢) من أكبر العلماء الصلحاء ، ثقة في الحديث ، سكن مكة وتوفي بها سنة ١٨٧ هـ . من كلامه : من عرف الناس استراح . (الاعلام ٣٦٠/٥) .

(٣) رواه ابن ماجه : من باب الرياء والسمة ٢٧٥/٢ ؛ وانظر كتاب الأحاديث القدسية ٢٩١/١ .

المعصية ، والعمل الفاسد ، والسبئية ، والفجور والظلم والبغي .

ولما كان العمل لا بُدَّ فيه من شيئين : النية والحركة ، كما قال النبي ﷺ :
« أصدق الأسماء حارث ومهام » ، فكل أحد حارثٌ مهام ، له عمل
ونية . لكن النية المحمودة التي يقبلها الله (٢٩) ويثيبُ عليها هي أن يُراد
الله وحده بذلك العمل .

والعمل المحمود هو الصالح ، وهو المأمور به . ولهذا كان عمر بن الخطاب
رضي الله عنه يقولُ في دعائه : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله
لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً » .

وإذا كان هذا حدثٌ كلَّ عمل صالح ، فالأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر
يجب أن يكون كذلك . هذا في حق الأمر الناهي بنفسه .

[العمل لا يكون الا بعلم وفقه]

ولا يكون عمله صالحاً إن لم يكن بعلم وفقه . كما قال عمر بن عبد العزيز
رضي الله عنه : « مَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ » . وكما في
حديث مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه « العلم امام العمل ، والعمل تابعه » . وهذا
ظاهر . فإنَّ القصد والعمل إن لم يكن بعلمٍ كان جهلاً ، وضلالاً واتِّباعاً للهوى
كما تقدم . وهذا هو الفرق بين أهل الجاهلية وأهل الاسلام . فلا بُدَّ من العلم
بالمعروف والمنكر ، والتمييز بينهما ، ولا بُدَّ من العلم بحال المأمور وحال المنهي .

ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي على الصراط المستقيم . والصراط المستقيم
أقربُ الطرق ، وهو الموصل الى حصول القصد .

[لا بد في الأمر والنهي من الرفق والحلم والصبر]

ولا بُدّ في ذلك من الرفق ، كما قال النبي ﷺ : « ما كان الرفقُ في شيءٍ إلا زانه ، ولا كان العُنفُ في شيءٍ إلا شانه » ^(١) . وقال ﷺ : « إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله ، ويُعطي عليه ما لا يُعطي على العُنف » (٩ ب) ^(٢) .

ولا بُدّ أيضاً أن يكون حليماً ، صبوراً على الأذى . فإنّه لا بُدّ أن يحصل له أذى ، فإن لم يحلم ويصبر يُفسد أكثر مما يُصلح . كما قال لقمان لابنه : (وأمرُ بالمعروف ، وإنه عن المنكر ، واصبرْ على ما أصابك ، إنّ ذلك من عَزَمَ الأمور) ^(٣) .

ولهذا أمر الله الرُّسل ، وهم أئمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بالصبر . كقوله لحاتم الرسل ﷺ ، بل ذلك مقرون بتبليغ الرسالة . فإنّه أوّل ما أرسل أنزلت عليه سورة (يا أيّها المدثر) بعد أن أنزلت سورة (اقرأ) التي بها نبّئ . فقال الله تعالى : (يا أيّها المدثر ، قم فأنذر ، وربّك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرّجز فاهجر ، ولا تمّننْ تستكثر ،

(١) رواه مسلم في كتاب البر ، باب الرفق ، عن عائشة ولفظه : إن الرفق لا يكون في شيءٍ إلا زانه ، ولا ينزع من شيءٍ إلا شانه « ٢٠٠٤/٤ .

(٢) رواه مسلم في كتاب البر ، باب الرفق . ولفظه عن عائشة : يا عائشة ! إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف ، وما لا يعطي على سواه « ٢٠٠٤/٤ . وانظر ابن ماجه ١٢١٦/٢ .

(٣) سورة لقمان ، ٣١ ، الآية ١٧ .

ولربك فاصبر^(١) . فافتتح آيات الإرسال الى الخلق بالأمر بالإندار^(٢) ،
 وختمها بالصبر . ونفس الإندار أمرٌ بالمعروف ونهي عن المنكر . فعلم أنه
 يجب بعده^(٣) الصبر . وقال تعالى : (واصبر لحكم ربك ، فإنك بأعيننا)^(٤) .
 وقال تعالى : (فاصبر على ما يقولون ، واهجرهم هجرًا جميلًا)^(٥) ، وقال :
 (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل)^(٦) ، وقال : (فاصبر لحكم ربك ،
 ولا تكن كصاحب الحوت)^(٧) ، وقال : (واصبر وما صبرك إلا بالله)^(٨) ،
 وقال : (واصبر فإن الله لا يضيع أجرَ الحسنيين)^(٩) .

فلا بدّ من هذه الثلاثة : العلم ، والرفق ، والصبر . العلم قبل الأمر والنهي ،
 والرفق معه ، والصبر بعده . وإن كان كلٌّ من الثلاثة لا بُدّ (٢١٠) أن
 يكون مستصحباً في هذه الأحوال .

وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف ، ورووه مرفوعاً ، ذكره القاضي
 ابو يعلى في « المعتمد »^(١) : « لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا مَنْ كان

(١) سورة المدثر ، ٧٤ ، الآيات ١ - ٧ .

(٢) ف : « بالندارة » .

(٣) ف : « بعد ذلك » .

(٤) سورة الطور ، ٥٢ ، الآية ٤٨ .

(٥) سورة المزمل ، ٧٣ ، الآية ١٠ .

(٦) سورة الأحقاف ، ٤٦ ، الآية ٣٥ .

(٧) سورة القلم ، ٦٨ ، الآية ٤٨ .

(٨) سورة النحل ، ١٦ ، الآية ١٢٧ .

(٩) سورة هود ، ١١ ، الآية ١١٥ ، وفي ف الآية ١١٦ خطأ .

فقيهاً فيما يأمر به ، فقيهاً فيما ينهى عنه ، رفيقاً فيما يأمر به ، رفيقاً فيما ينهى عنه ، حليماً فيما يأمر به ، حليماً فيما ينهى عنه » .

[صعوبة هذه الشروط]

وليُعلم أنّ اشتراط هذه^(٢) الخصال في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مما يوجب الصعوبة^(٣) على كثير من النفوس ، فيظنّ أنه بذلك يسقط عنه فيَدَعُهُ ، وذلك مما يضرّه أكثر مما يضرّه الأمرُ بدون هذه الخصال ، أو أقلّ . فإن ترك الأمر الواجب معصية ، وفعل ما نهى الله عنه في الأمر معصية . فالمنتقل من معصية الى معصية كالمستجير من الرمضاء بالنار ، أو كالمنتقل من دين باطل الى دين باطل قد يكون الثاني شرّاً من الأوّل ، وقد يكون دونه ، وقد يكونان سواء . فهكذا تجب المقصّر في الأمر والنهي ، والمعتدي فيه قد يكون ذنب هذا أعظم ، وقد يكون ذنب ذاك أعظم ، وقد يكونان سواء .

[المعاصي سبب المصائب ، والطاعة سبب النعمة]

ومن المعلوم بما أَرانا الله من آياته في الآفاق ، وفي أنفسنا ، وبما شهد به في كتابه - أنّ المعاصي سبب المصائب . فسيئات المصائب والجزاء : هي^(٤) من سيئات الأعمال . وأنّ الطاعة سبب النعمة . فإحسان العبد العمل سبب

(١) في اصول الفقه . انظر كشف الظنون ١٧٣٢/٢ .

(٢) ف : « وليعلم ان الأمر بهذه الخصال » .

(٣) ف : « صعبته » .

(٤) ساقطة من ف .

لإحسان الله قال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم ، ويعفو عن كثير)^(١) ، وقال تعالى : (ما أصابك من حسنة فمن الله ، (١٠ ب) وما أصابك من سيئة فمن نفسك)^(٢) ، وقال تعالى : (إن الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلّهمُ الشيطانُ ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم)^(٣) ، وقال تعالى : (أوَ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْنِهَا قُلْتُمْ : أُنْتِ هَذَا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ)^(٤) ، وقال : (أوَ يَبْقِئُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا ، وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ)^(٥) ، وقال : (وإن تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمْتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ)^(٦) ، وقال تعالى : (وما كان الله لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ، وما كان الله مُعَذِّبَهُمْ وهم يَسْتَغْفِرُونَ)^(٧) .

[ما عاقب الله به الامم السابقة لمعاصيهم]

وقد أخبر الله سبحانه بما عاقب به أهل السيتات من الأمم ، كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وأصحاب مدائن ، وقوم فرعون - في الدنيا . وأخبر بما سيُعاقبهم به في الآخرة . ولهذا قال مؤمن آل فرعون : (يا قوم ، إنني أخافُ عليكم مثلَ يومِ الأحزاب ، مثلَ دأبِ قَوْمِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ والذين من بعدهم ، وما الله يُريدُ ظُلماً للعباد . يا قوم إنني أخافُ عليكم يوم

(١) سورة الشورى ، ٤٢ ، الآية ٣٠ .

(٢) سورة النساء ، ٤ ، الآية ٧٩ .

(٣) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١٥٥ .

(٤) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١٦٥ .

(٥) سورة الشورى ، ٤٢ ، الآية ٣٤ .

(٦) سورة الشورى ، ٤٢ ، الآية ٤٨ .

(٧) سورة الأنفال ، ٨ ، الآية ٣٣ .

التَّنادِ ، يوم تُولَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ . وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (١) ، وقال تعالى : (كَذَلِكَ الْعَذَابُ ، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (٢) وقال : (سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) (٣) . وقال : (وَلَنَذِيقَنَّهِمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (٤) ، (١١ آ) وقال : (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ - إِلَى قَوْلِهِ : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى ، إِنَّا مُنْتَقِمُونَ) (٥) .

[عقوبة اهل السيئات في الدنيا والاخرة]

ولهذا يذكر الله في عامة سُورِ الإنذار ما عاقب به أَهْلَ السَّيِّئَاتِ فِي الدُّنْيَا ، وما أَعَدَّ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ . وقد يذكر في السورة وعدَ الْآخِرَةِ فقط ، إِذْ عَذَابُ الْآخِرَةِ أَعْظَمُ ، وَثَوَابُهَا أَعْظَمُ ، وَهِيَ دَارُ الْقَرَارِ . وَإِنَّمَا يَذْكُرُ مَا يَذْكُرُهُ مِنَ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ تَبَعاً ، كَقَوْلِهِ فِي قِصَّةِ يُوسُفَ : (وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نَصِيبُ بَرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ ، وَلَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ . وَلَاجِرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) (٦) ، وقال : (فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسِّنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ) (٧) ، وقال : (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ،

(١) سورة غافر ، ٤٠ ، الآيات ٣٠ - ٣٣ .

(٢) سورة النقم ، ٦٨ ، الآية ٣٣ .

(٣) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ١٠١ .

(٤) سورة السجدة ، ٣٢ ، الآية ٢١ .

(٥) سورة الدخان ، ٤٤ ، الآيات ١٠ - ١٦ .

(٦) سورة يوسف ، ١٢ ، الآيات ٥٦ - ٥٧ .

(٧) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١٤٨ .

وَلَا جَرْءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ، لو كانوا يعلمون. الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون^(١)،
وقال عن ابراهيم عليه الصلاة والسلام : (وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ
فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) ^(٢) .

وأما ذكره لمقوبة الدنيا والآخرة ففي سورة النازعات ، إذ قال :
(وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ، وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا - ثُمَّ قَالَ : يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ
تَتَّبِعُنَّهَا الرَّادِفَةُ) ، فذكر القيامة 'مطلقاً' : ثم قال : (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
مُوسَى ، إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِي الْمَقْدَسِ طُوًى . اذْهَبْ) (١١ ب) إلى فرعون
إنه طغى - الى قوله : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى) ، ثم ذكر المبدأ والمعاد
'مفصلاً' فقال : (أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا - الى قوله : فَإِذَا جَاءَتْ
الطَّامَةُ الْكُبْرَى ، يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ، وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ،
فَأَمَّا مَنْ طَغَى ، وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى) ^(٣) . الى
آخر السورة .

وكذلك في سورة المزمل ذكر قوله : (وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّعْمَةِ
وَمِهْلُهُمْ قَلِيلًا ، إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا ، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ، -
الى قوله : كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ ، فَأَخَذْنَاهُ
أَخْذًا وَّيْلًا) ^(٤) .

وكذلك في سورة الحاقة ذكر قصص الأمم كنمود ، وعاد ، وفرعون ،

(١) سورة النحل ، ١٦ ، الايات ٤١-٤٢ .

(٢) سورة النحل ، ١٦ ، الاية ١٢٢ .

(٣) سورة النازعات ، ٧٩ ، الايات ١-٤١ .

(٤) سورة المزمل ، ٧٣ ، الايات ١١ - ١٦ .

ثم قال تعالى : (فإذا نُفِخَ في الصور نفخة واحدة ، وُحِيت الأرض والجبال فدُكَّتَا دَكَّةً واحدة) ^(١) الى تمام ما ذكره من أمر الجنة والنار .

وكذلك في سورة « ن والقلم » ذكر قصة أهل البستان الذين منعوا حقّ أموالهم وما عاقبهم به . ثم قال : (كذلك العذاب ، ولَعَذَابُ الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) ^(٢) .

وكذلك في سورة التغابن قال : (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، فذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَقَالُوا : أَبَشَرُكُمْ بِهَدُونَا ؟ فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَفِيٌّ حَمِيدٌ) ، ثم قال تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يُبعثوا ، قل : بلى ، وربّي (١٢ آ) لتُبْعَثُنَّ ، ثم لتُنَبَّؤُنَّ بما علمتم ، وذلك على الله يسير) ^(٣) .

وكذلك في سورة « ق » ^(٤) ذكر حال المخالفين للرسول ، وذكر الوعد والوعيد في الآخرة ، وكذلك في سورة « القمر » ^(٥) ذكر هذا وهذا ، وكذلك في سورة « حم » مثل « حم غافر » ^(٦) و « السجدة » ^(٧) ، و « الزخرف » ^(٨)

(١) سورة الحاقة ، ٦٩ ، الايات ١٢ - ٣٧ .

(٢) سورة القلم ، ٦٨ ، الآية ٣٣ .

(٣) سورة التغابن ، ٦٤ ، الايات ٥ - ٧ .

(٤) السورة الخمسون . أنظر الايات ١٢ - ٣٠ .

(٥) السورة الرابعة والخمسون . انظر الايات ٩ - ٥٥ .

(٦) السورة الأربعون .

(٧) السورة الثانية والثلاثون .

(٨) السورة الثالثة والأربعون .

و « الدخان » ، ^(١) ، وغير ذلك مما لا يحصى .

[أول ما نزل من القرآن الوعد والوعيد]

فإن التوحيد والوعد والوعيد من أول ما أنزل ، كما في صحيح البخاري ^(٢) عن يوسف بن ماهك ^(٣) قال : « إنني عند عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، اذ جاءها عراقي » ، فقال : أي الكفن خير ؟ قالت : وبحك ، وما يضرُّك ؟ قال يا أم المؤمنين ، أريني مصحفك . قالت : لم ؟ قال : لعلي أولف القرآن عليه ، فإنه يقرأ غير مؤلف . قالت : وما يضرُّك أيته قرأت قبل ، إنما نزل أول ما نزل منه سورة من الفصل فيها ذكر الجنة والنار . حتى إذا تاب الناس إلى الاسلام نزل الحلال والحرام . ولو نزل أول شيء : لا تشربوا الخمر ، لقالوا : لا ندع الخمر أبداً . ولو نزل لا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا أبداً . لقد نزل بمكة على محمد ﷺ وإنني لجارية العبد : (بل الساعة موعدهم والساعة أذهى وأمر) ^(٤) ، وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده . قال : فأخرجت له المصحف ، فأملت عليه آي السورة . (١٢ ب)

[اختلاف الناس في الامر والنهي سبب التفرق والاختلاف]

وإذا كان الكفر والفسوق والعصيان سبب الشر والعدوان ، فقد يذنب

(١) السورة الرابعة والأربعون .

(٢) أنظر صحيح البخاري ١٥٢/٦ باب تأليف القرآن (طبعة مكتبة النهضة الحديثة بمكة) .

(٣) يوسف بن ماهك (بفتح الهاء) الفارسي . تابعي ثقة عدل (انظر تهذيب التهذيب ٤٢١/١) .

(٤) هذه الآية من سورة القمر ، ٥٤ ، رقم ٤٦ .

الرجل والطائفة ، ويسكت آخرون عن الأمر والنهي ، فيكون ذلك من ذنوبهم ، وينكر عليهم آخرون إنكاراً منهياً عنه ، فيكون ذلك من ذنوبهم . فيحصل التفرق والاختلاف والشر . وهذا من أعظم الفتن والشرور قديماً وحديثاً ، إذ الإنسان ظلوم جهول . والظلم والجهل أنواع ، فيكون ظلم الأول وجهله من نوع ، وظلم كل من الثاني والثالث وجهلها من نوع آخر وآخر .

ومن تدبر الفتن الواقعة رأى سببها ذلك . ورأى أن ما وقع بين أمراء الأمة وعلمائها ، ومن تبعهم من العامة في الفتن - هذا أصلها . ويدخل في ذلك أسباب الضلال والغى : الأهواء الدينية والشهوانية ، والبِدَع في الدين ، والفجور في الدنيا . وذلك أن أسباب الضلال والغى التي هي البِدَع في الدين والفجور في الدنيا ، مشتركة تعم بني آدم ، لما فيهم من الظلم والجهل . فيُذنب بعض الناس بظلم نفسه وغيره ، بفعل الزنا أو التلوط أو غيره ، أو بشرب الخمر ، أو ظلم في المال بخيانة أو سرقة أو غصب ، ونحو ذلك .

[المعاصي مشتهة في الطباع]

ومعلوم أن هذه المعاصي ، وإن كانت مستقبحة مذمومة في العقل والدين ، فهي مشتهة في الطباع . ومن شأن النفوس أنها لا تحب اختصاص غيرها بشيء وزيادته عليها ، لكن تريد أن يحصل لها ما حصل له ، وهذا هو الغبطة التي هي (١٣ آ) أدنى نوعي الحسد . فهي تريد الاستعلاء على الغير ، والاستئثار دونه ، أو تحسده وتتمنى زوال النعمة عنه ، وإن لم يحصل . ففيها من إرادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما يتقاضاها أن تختص عن غيرها بالشهوات ، فكيف إذا رأت الغير قد استأثر عليها بذلك ، واختص به دونها ؟ فالمعتدل منهم في ذلك : الذي يحب الاشتراك والتساوي ، وأما الآخر فظلوم حسود .

وهاذان يقعان في الأمور المباحة ، والأموال المحرمة لحق الله . فما كان
جنسه مُباحاً ، من أكل وشرب ، ونكاح ، ولباس ، وركوب ، وأموال ،
إذا وقع فيها الاختصاص حصل بسببه الظلم والبخل والحسد .

[الشح سبب الغرور]

وأصلها الشُّح ، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إيتاكم والشح »
فإنه أهلك مَنْ كان قبلكم . أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ،
وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، ^(١) ولهذا قال الله تعالى في وصف الأنصار : (والذين
تبوأوا الدارَ والايمانَ من قبلهم - أي من قبل المهاجرين - يحبّون مَنْ هاجر
اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا - أي لا يجدون الحسد ممّا
أوتي إخوانهم من المهاجرين - ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة
- ثم قال : وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هم المفلحون) ^(٢) .

وسمع عبد الرحمن بن عَوْفٍ ، وهو يطوفُ بالبيت يقول : « ربِّ ، قني
شُحَّ نفسي . ربِّ ، قني شُحَّ نفسي » . ف قيل له في ذلك ، فقال : « إذا
وُقيت شُحَّ نفسي (١٣ ب) فقد وقيتُ البخلَ والظلمَ والقطيعةَ » ، أو
كما قال .

فهذا الشُّحُّ - الذي هو شدّة حرص النفس - يوجب البخل بمنع ما عليه ،
والظلم بأخذ مال الغير ، ويوجب قطيعة الرحم ، ويوجب الحسد ، - وهو
كرهه ما اختص به الغير وتمنّي زواله . والحسد فيه بخل وظلم ، فإنه بخل

(١) أخرجه الدارمي ، زكاة ، ٤٦ - وانظر مسند أحمد ١٦٠/٢ .

(٢) سورة الحشر ، ٥٩ ، الآية ٩ .

بما أعطيه عن غيره ، وظلم بطلب زوال ذلك عنه .

فإذا كان هذا في جنس الشهوات المباحة ، فكيف بالمحرّمة ؟ كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك . وإذا وقع فيها إختصاص فإنه يصير فيها نوعان : أحدهما بُغضُها لما في ذلك من الاختصاص والظلم ، كما يقع في الأمور المباحة الجنس ، والثاني بُغضُها لما في ذلك من حق الله .

[أنواع الذنوب]

ولهذا كانت الذنوب ثلاثة أقسام :

أحدها : ما فيه ظلم للناس ، كالظلم بأخذ الأموال ، ومنع الحقوق ، والحسد ، ونحو ذلك .

والثاني : ما فيه ظلم للنفس فقط ، كشرب الخمر والزنا ، إذا لم يتعدّ ضررها .

والثالث : ما يجتمع فيه الأمران ، مثل أن يأخذ الحاكم والأمير ^(١) أموال الناس ليزني بها ويشرب الخمر ويرتكب الفواحش ^(٢) . ومثل أن يزني بمن يرفعه على الناس بذلك السبب ويضرّهم ، كما يقع ممن يحب النساء والصبيان ، وقد قال الله تعالى : (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ ، والإثمَ والبغْضَ بغيرِ الحقِّ ، وأن تُشْرِكُوا بالله ما لم يُنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وأن

(١) ف « ان يأخذ المتولى .. »

(٢) قوله « ويرتكب الفواحش » ساقط من ف .

تقولوا على الله (١٤ آ) ما لا تعلمون (١) .

[استقامة أمور الناس بالعدل]

وأمر الناس إنَّما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق ، وإن لم تشترك في إثم . ولهذا قيل : إنَّ الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يُقيمُ الظالمة وإن كانت مسلمة .

ويُقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والاسلام .

وقد قال النبي ﷺ : « ليس ذنبٌ أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم » (٢) . فالباغي يُصرَعُ في الدنيا ، وإن كان مغفوراً له مرحوماً .

وذلك أن العدل نظام كلِّ شيء . فإذا أُقيم أمرُ الدنيا بالعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها من خلاق ، ومضى لم تقم بالعدل لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجزى به في الآخرة .

[طبيعة النفس : العلو والحسد والظلم]

والنفس فيها داعي الظلم لغيرها بالعلو عليه ، والحسد له ، والتعدي عليه في حقّه ، وفيها داعي الظلم لنفسها بتناول الشهوات القبيحة ، كالزنا وأكل الخبائث . فهي قد تظلمُ مَنْ لا يظلمها ، وتؤثر هذه الشهوات وإن لم يفعلها

(١) سورة الأعراف ، ٧ ، الآية ٣٣ .

(٢) رواه ابن ماجه في كتاب الزهد ، باب البغي : ولفظه : « وأمرع الشرَّ عقوبة البغي وقطيعة الرحم » ١٤٠٨/٢ .

غيرها . فإذا رأتُ نظراءها قد ظلموا أو تناولوا هذه الشهوات صار داعي هذه الشهوات أو الظلم فيها أعظم بكثير .

وقد يصير ويهيج ذلك لها من بغض ذلك الغير وحسده وطلب عقابه ، وزوال الخير عنه ، ما لم يكن فيها قبل ذلك . ولها حجة عند نفسها من جهة العقل والدين بكون ذلك الغير قد ظلم نفسه والمسلمين ، (١٤ ب) وأن أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر والجهاد على ذلك من الدين .

[انواع الناس في ذلك]

والناس هنا ثلاثة أقسام : قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم ، فلا يرضون إلا بما يُعطونَه ، ولا يفضون إلا لما يُحرمونه . فإذا أُعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام : زال غضبه ، وحصل رضاه . وصار الأمر الذي كان عنده منكراً ، ينهى عنه ويُعاقب عليه ، ويذم صاحبه ويفض عليه ، صار فاعلاً له ، شريكاً فيه ، ومُعاوناً عليه ، ومُعادياً لمن ينهى عنه ويُنكر عليه . وهذا غالب في بني آدم . ترى الانسان يسمع من ذلك ما لا يحصيه إلا الله . وسببه أن الانسان ظلوم جهول . فلذلك لا لا يعدل . بل ربما كان ظالماً في الحالين . يرى قوماً يُنكرون على الحاكم والأمير ظلمه لرعيته واعتدائه عليهم . فيرضي اولئك المنكرين ببعض الشيء من منصب أو مال ، فينقلبون أعواناً له . وأحسن أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه .

وكذلك ترام على من يشرب الخمر ويزني ، ويسمع الملاهي ، حتى يدخلوا أحدهم معهم في ذلك ، أو يرضوه ببعض ذلك ، فتراه حينئذ قد صار عوناً

لهم . وهؤلاء قد يعودون بإنكارهم الى أقبح من الحال التي كانوا عليها ، وقد يعودون الى ما هو دون ذلك أو نظيره .

وقوم يقومون قومة ديانة صحيحة ، يكونون في ذلك مخلصين لله ، مُصلحين فيما عملوه ، ويستقيم لهم ذلك ، حتى يصبروا على ما أودوا . فهؤلاء هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وهم من خير أمةٍ أخرجت للناس : يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويؤمنون بالله (١٥ آ) .

وقوم يجتمع فيهم هذا وهذا ، وهم من غالب المؤمنين .

فَمَنْ فِيهِ دِينٌ وله شهوة يجتمع في قلبه ارادةُ الطاعة وإرادةُ المعصية . وربما غلب هذا تارة وهذا تارة .

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل : الأنفس ثلاثٌ : أَمَّارةٌ ، وَلَوَّامةٌ ، ومطمئنةٌ .

فالأولون هم أهلُ النفسِ الأمَّارةِ التي تأمرُ بالسوء .

والوسط هم أهلُ النفسِ المطمئنةِ التي يُقال لها (يا أَيَّتُهَا النفسُ المطمئنةُ ارجعي الى ربِّكَ راضيةً مَرْضِيَّةً . فادخلي في عبادي ، وادخلي جنتي) (١) .

وهؤلاء هم أهلُ النفسِ اللوَّامةِ ، التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه ، وتتلون تارةً كذا وتارةً كذا ، وتخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . وهؤلاء يُرجى (٢) أن

(١) سورة الفجر ، ٨٩ ، الايات ٢٧ - ٣٠ .

(٢) قوله « وهؤلاء الى آخر الآية » ساقط من ف .

يتوب الله عليهم اذا اعترفوا بذنوبهم ، كما قال الله تعالى (وآخرون اعترفوا
بذنوبهم ، خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم إن الله
غفورٌ رحيم) (١) .

ولهذا لما كان الناس في زمن أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، وهما
الذان أمرَ المسلمون بالاعتداء بهما ، كما قال النبي ﷺ : « اقتدوا بالذَيْن من
بعدي : أبي بكر وعمر » (٢) ، لما كان الناس أقرب عهداً بالرسالة ، وأعظم
إيماناً وصلاحاً ، وأتمتْهم أقوم بالواجب ، وأثبت في الطمأنينة ، لم تقع فتنة .
اذ كانوا في حكم القسم الوسط .

ولما كان في آخر خلافة عثمان ، وفي خلافة علي ، رضي الله عنهما ، كثر
القسم الثالث . فصار فيهم شهوة (٣) ، مع الايمان والدين . قد صار ذلك في
بعض الولاة وبعض الرعايا . ثم كثر ذلك بعد ، فنشأت الفتنة التي سببها ما
تقدم ، من عدم تحييص التقوى والطاعة في الطرفين ، واختلاطها بنوع من
الهمى والعصبية (٤) في الطرفين . وكل منها متأول أنه يأمر بالمعروف
وينهى عن المنكر ، وأنه مع الحق والعدل . ومع هذا التأويل نوع من الهمى .
ففيه نوع من الظن وما تهوى الأنفس ، وإن كانت إحدى الطائفتين أولى
بالحق من الأخرى .

فلهذا يجب على المؤمن أن يستعين بالله ، ويتوكل عليه في أن يعمر قلبه

(١) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ١٠٢ .

(٢) رواه الترمذي في المناقب ٢٧٠/٩ ؛ وابن ماجه في المقدمة ، واحد في المسند ٣٨٢/٥ .

(٣) ف « شهوة وشبهة »

(٤) ف « من الهمى والعصبية » .

بالإيمان والتقوى ، ولا يُزيفهُ ، ويُثَبِّتَهُ على الهدى ، ولا يتَّبِعِ الهوى ، كما قال تعالى (فلذلك فادعُ ، واستقمْ كما أمرتَ ، ولا تتَّبِعِ أهواءهم . وقلْ : آمَنتُ بما أنزلَ اللهُ من كتاب ، وأمرتُ لأُعدِلَ بينكم . اللهُ ربُّنا وربكم) (١) .

[اختلاف الأمة في المقالات والمبادئ وواجبها]

وهذا أيضاً حال الأمة فيما تفرقت فيه ، واختلفت في المقالات والمبادئ . وهذه الأمور مما تعظمُ بها الحنة على المؤمنين ، فإنهم محتاجون الى شيئين . الى دفع الفتنة التي ابتلي بها نظراؤهم ، من فتنة الدنيا والدين ، عن نفوسهم ، مع قيام المقتضى لها . فإنَّ معهم نفوساً وشیاطین ، كما مع غیرهم . فمع وجود ذلك من نظائرهم يقوى المقتضى عندهم ، كما هو الواقع . فيبقى الداعي الذي في نفس الشيطان وشیطانہ (١٦٦ آ) . ودواعي الخير كذلك ، وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير .

فكم من الناس من لم يُرد خيراً ولا شراً ، حتى رأى غيره - لا سيما إن كان نظيره - يفعله ، ففعله . فإنَّ الناسَ كأسرابِ القَطَا ، مجبولون على تشبه بعضهم ببعض .

ولهذا كان المبتدئ بالخير وبالشرِّ له من الأجرِ والوزرِ مثل مَنْ تَبِعَهُ ، كما قال النَّبِيُّ ﷺ : مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى

(١) سورة الشورى ، ٤٢ ، الآية ١٥ .

يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن سن سنة سيئة فعله وزرّها وزرُّ من عمل بها الى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً ، ^(١) ، وذلك لاشتراكهم في الحقيقة ، وأنّ حكم الشيء حكم نظيره ، وشبه الشيء منجذب إليه .

فإذا كان هاذان داعين قويّين ، فكيف اذا انضم اليها داعيان آخران ؟ .

وذلك أنّ كثيراً من أهل المنكر يحبّون من يوافقهم على ما هم فيه ، ويُبغضون من لا يوافقهم . وهذا ظاهر في الديانات الفاسدة ، من موالاة كلّ قوم لموافقيهم ومعاداتهم لمخالفهم . وكذلك في أمور الدنيا والشهوات كثيراً ما يختار أهلها ويُؤثرون من يُشاركهم في أمورهم وشهواتهم . إما للمعاونة على ذلك ، كما في المتغلبين من أهل الرياسات وقطّاع الطريق ونحو ذلك ، وإما لتلذّذهم بالموافقة ، كما في المجتمعين على شرب خمر - مثلاً ، فإنّهم يحبّون أن يشرب كلّ من حضر عندهم ، وإما لكراهتهم امتيازهم عنهم بالخير (١٦ب) إمّا حسداً له على ذلك ، أو لئلا يعلمو عليهم بذلك ويحمده الناس دونهم ، أو لئلا يكون له عليهم حجة ، أو لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه أو بمن يرفع ذلك اليهم ، أو لئلا يكونوا تحت منته وخطره ، ونحو ذلك من الأسباب . قال الله تعالى : (ودّ كثيرٌ من أهل الكتاب لو يردّونكم ، من

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، ولفظه : من سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها بعده ، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ، ووزر من عمل بها من بعده ... ٧٠٥/٢ وانظر أيضاً صحيح مسلم ٢٠٥٩/٤ .

بعد إيمانكم كفّاراً، حَسَدًا من عند أنفسهم ، من بعدما تبَيَّن لهم الحقّ (١)،
وقال تعالى في المُنافقين : (وَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ، فَتَكُونُونَ
سواءً) (٢) . وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه : « وَدَّت الزانية لو زنى
النساءُ كلَّهن » .

والمشاركة 'قد يختارونها في نفس الفجور ، كالاشتراك في شرب الخمر ،
والكذب ، والاعتقاد الفاسد . وقد يختارونها في النوع الثاني كالزاني الذي يودّ
أن يزني غيره ، والسارق الذي يودّ أن يسرق غيره ايضاً ، لكن في غير العيّن
التي زنى بها والتي سرقها .

وأما الداعي الثاني فقد يأمرّون الشخص بشاركتهم فيها هم عليه من
المُنكر ، فإنّ شاركتهم وإلاّ عادوه وآذوه على وجهٍ قد ينتهي الى
حدّ الإكراه .

ثم إنّ هاؤلاء الذين يختارون مشاركة الغير لهم في قبيح فعلهم ، أو
يأمرّونه بذلك ويستعينون به على ما يريدونه ، فإنهم متى شاركتهم وعاونهم
وأطاعهم انتقصوه واستخفّوا به ، وجعلوا ذلك حجةً عليه في أمور أخرى .
(١٧ آ) وإنّ لم يُشاركهم عادوه وآذوه . وهذه حال غالب الظالمين
القادرين .

وهذا الموجودُ في المنكر ، موجودٌ نظيره في المعروف ، وأبلغ منه ، كما

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١٠٩ .

(٢) سورة النساء ، ٤ ، الآية ٨٩ .

قال الله تعالى : (والذين آمنوا أشدَّ حُبًّا لله) ^(١) ، فإنَّ الإنسان فيه داعٍ يدعوه الى الايمان والعلم ، والصدق والعدل ، وأداء الأمانة . فإذا وُجد مَنْ يعمل ذلك مثله صار له داعٍ آخر ، لا سيَّما اذا كان نظيره ، لا سيَّما مع المنافسة . وهذا محمودٌ حَسَن .

فإنَّ وُجْدَ مَنْ يُحِبُّ موافقته على ذلك ومشاركته له من المؤمنين والصالحين ، وَمَنْ يُبْغِضه إذا لم يفعل ذلك : صار له داعٍ ثالث .

فإذا أمروه بذلك ووالوه على ذلك ، وعادوه وعاقبوه على تركه ، صار له داعٍ رابع .

[يجب مقابلة السيئات بالحسنات]

ولهذا يؤمر المؤمنون أن يُقابِلوا السيئات بضدِّها من الحسنات ، كما يُقابِل الطبيب المرض بضدِّه . فيؤمرُ المؤمن بأن يُصلح نفسه ، وذلك بشيئين : بفعل الحسنات ، وترك السيئات . مع وجود ما ينفي الحسنات ويقتضي السيئات . وهذه أربعة أنواع .

ويؤمرُ أيضاً بإصلاح غيره بهذه الأنواع الأربعة بحسب قدرته وإمكانه . قال تعالى : (والعصر . إنَّ الإنسان لفي خُسْر ، إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصبر) ^(٢) . ورؤي عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال : « لو فكَّرَ الناسُ كلَّهم في سورة العصر لكفَّتْهم » . وهو كما

(١) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١٦٦ .

(٢) سورة العصر ، ١٠٣ ، الآيات ١ - ٣ .

قال . فإنّ الله تعالى أخبر فيها أنّ جميع الناس خاسرون ، إلّا مَنْ كان في نفسه مؤمناً صالحاً ، ومع غيره موصياً بالحق ، موصياً بالصبر .

[عظم الهنة سبب لعلو الدرجة]

وإذا عظُمت الهنة كان ذلك للمؤمن الصالح سبباً لعلو الدرجة وعظيم الثواب ^(١) . كما سئل النبي ﷺ : « أيّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ » قال : الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثلُ فالأمثل . يُبتلى الرجلُ على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابةٌ زِيدَ في بلائه ، وإن كان في دينه رقةٌ خُفِّفَ عنه . وما يزالُ البلاءُ بالمؤمن حتى يمشی على وجه الأرض وليس عليه خطيئة ^(٢) . وحينئذٍ فيحتاج من الصبر ما لا يحتاج إليه غيره . وذلك هو سببُ الإمامة في الدين . كما قال تعالى : (وجعلناهم أئمةً يهتدون بأمرنا لِمَا صَبَرُوا ، وكانوا بآياتنا يوقنون) ^(٣) .

[لا بد من الصبر على فعل الحسن]

فلا بُدَّ من الصبر على فعل الحسنِ المأمور به ، وعلى تركِ المحظور المنهى عنه . ويدخل في ذلك الصبر على الأذى ، وعلى ما يُقال ، والصبر على ما يُصيبُه من المكاره ، والصبر عن البطش عند النعم ، وغير ذلك من أنواع الصبر .

(١) ف « وعظيم الاجر » .

(٢) انظر الدارمي ، كتاب الرقاق ، باب : اشد الناس بلاء ٣٢٠/٢ ؛ ومسنَد أحد . ١٧٢/١

(٣) سورة السجدة ، ٣٢ ، الآية ٢٤ .

[ولا بد من اليقين]

ولا يمكن العبد أن يصبر إن لم يكن له ما يطمئن به ويتنعم به ويتغذى به : وهو اليقين . كما في الحديث الذي رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « أيها الناس ، سلوا الله اليقين والعافية . فإنه لم يُعط أحد بعد اليقين خيراً من العافية ، فسألوهما الله ^(١) » .

وكذلك إذا أمر (١٨ آ) غيره بحسن ، أو أحب موافقته له على ذلك ، أو نهى غيره عن سيئ ، فيحتاج أن يحسن إلى ذلك الغير إحساناً يحصل به مقصوده : من حصول المحبوب واندفاع المكروه . فإن النفوس لا تصبر على المرء إلا بنوع من الحلول . لا يمكن غير ذلك . ولهذا أمر الله بتأليف القلوب ، حتى جعل المؤلف قلوبهم نصيباً في الصدقات . وقال تعالى لنبيته ﷺ : (خذ العفو ، وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین) ^(٢) . وقال تعالى : (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) ^(٣) . فلا بُد أن يصبر ويرحم . وهذا هو الشجاعة والكرم .

ولهذا يقرن الله بين الصلاة والزكاة تارة ، وهي الإحسان إلى الخلق ، وبينها وبين الصبر تارة .

ولا بُد من الثلاثة : الصلاة ، والزكاة ، والصبر . لا تقوم مصلحة المؤمنين

(١) رواه الترمذي ، ٢٠٦/٩ . ولفظه : « أسألوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية » .

(٢) سورة الأعراف ، ٧ ، الآية ١٩٩ .

(٣) سورة البلد ، ٩٠ ، الآية ١٧ .

إلاّ بذلك في صلاح نفوسهم وإصلاح غيرهم، لا سيّما كلّما قويت الفتنة والمحنة .
فإنّ الحاجة الى ذلك تكون أشدّ .

فالحاجة الى السّماحة والصبر عامّة لجميع بني آدم ، لا تقوم مصلحة دينهم ولا دنياهم إلاّ بهما . ولهذا فإن جميعهم يتّادحون بالشجاعة والكرم ، حتّى إنّ ذاك عامّة ما يمدح به الشعراء ومدوحهم في شعرهم ، وكذلك يتّدامون بالبخل والجبن .

والقضايا التي يتّفق عليها عقلاء بني آدم لا تكون إلاّ حقّاً ، كاتفاقهم على مدح الصدق والعدل ، وذمّ الكذب والظلم . وقال النبيّ ﷺ (١٨ ب) لما سأله الأعراب حتّى اضطروه الى سَمرة^(١) ، فتعلّقت برّدائه - فالتفت إليهم وقال : « والذي نفسي بيده ، لو أنّ عندي عدد هذه العِضاء نَعَمًا لقسمته فيكم ، ثم لا تجحدوني بخيلاً ولا جباناً ، ولا كذوباً » . لكنّ ينوّع ذلك بتنوّع المقاصد والصفات ، فإنّما الأعمال بالنيّات ، وإنّما لكلّ امرئ ما نوى .

[ذم البخل والجبن]

ولهذا جاء الكتاب والسُنّة بزم البخل والجبن ، ومدح الشجاعة والسّماحة في سبيل الله ، دون ما ليس في سبيله . فقال النبيّ ﷺ : « شرُّ ما في المرء شُحٌّ هالِعٌ ، وجُبْنٌ خالِعٌ »^(٢) . وقال : « مَنْ سَيِّدُكُمْ يا بني سلمة ؟ فقالوا : الجَدُّ بنُ قَيْنَسٍ ، على أنّا نَزَرْنَاهُ بالبخل . فقال : وأيّ داءٍ أدوى من البخل ؟ »^(٣) .

(١) نوع من شجر البادية .

(٢) رواه أحمد ٣٠٢/٢ - وأبو داود ، في الجهاد ، باب في الجرأة والجبن ،

(٣) رواه البخاري في الخمس ، ١٥ ، وفي المغازي ٧٣ .

وفي رواية : إن السيّد لا يكونُ بخيلاً ، بل سيّدكم الأبيض الجعد البرّاء بن معرور « (١) » .

وكذلك في « الصحيح » قولُ جابر بن عبد الله لأبي بكر الصديق ، رضي الله عنهم : « إمّا أن تعطيني ، وإمّا أن تبخل عني . فقال : تقولُ وإمّا أن تبخل عني ؟ وأيُّ داءٍ أدوى من البخل ؟ » . فجعل البخل من أعظم الأمراض .

وفي « صحيح مسلم » عن سليمان بن ربيعة قال : قال عمر رضي الله عنه : « قَسَمَ النبي ﷺ قَسَمًا ، فقلتُ : يا رسول الله ! والله لَتَغَيَّرَ هؤلاء أحقُّ منهم . فقال : إنَّهم خيِّروني بين أن يسألوني بالفُحش وبين أن يُبخلوني ، ولستُ بباخل » (٢) . يقول : إنهم سألوني مسألةً لا تصلح ، فإن أعطيتهم وإلا قالوا : هو بخيل (١٩ آ) . فقد خيِّروني بين أمرين مكروهين لا يتركوني من أحدهما المسألة الفاحشة ، والتبخل . والتبخل أشدُّ ، فأدفعُ الأشدَّ بإعطائهم .

[أنواع البخل]

والبُخل جنس تحته أنواع ، كبائر وغير كبائر .

قال الله تعالى : (ولا يحسنّ الذين يبخلون بما آتاهمُ الله من فضله هو

(١) انظر سيرة ابن هشام ١٠٤/٢ ، وتفسير القرطبي ١٥٩/٩ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب من سأله بفحش وغلظة ، وفيه « ... إنهم خيروني أن

يسألوني بالفحش أو يبخلوني ، فليست نباخل » الحديث ١٢٧ ، ٧٣٠/٢ .

خيراً لهم ، بل هو شرٌّ لهم . سَيُطَوَّقُونَ ما بَخَلُوا به يوم القيامة (١) ، وقال :
 (واعبدوا الله ، ولا تُشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً - الى قوله - إنَّ
 الله لا يحبُّ مَنْ كان مُخْتَلِئاً فخوراً ، الذين يَبْخُلُونَ ويأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ) (٢)
 وقال تعالى : (وما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
 وبرَسُولِهِ ، ولا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وهم كُسَالَى ، ولا يُنْفِقُونَ إِلَّا وهم
 كَارِهُونَ) (٣) ، وقال : (فلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا به ، وتَوَلَّوْا وهم مُعْرِضُونَ .
 فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ الى يوم يَلْقَوْنَهُ) (٤) ، وقال : (وَمَنْ يَبْخُلْ
 فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنْ نَفْسِهِ) (٥) ، وقال : (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ، الذين هم عَنْ صَلَاتِهِمْ
 سَاهُونَ ، الذين يَرَاؤْنَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ) (٦) ، وقال : (والذين يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ
 والْفِضَّةَ ، ولا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يوم يُخْمَى عَلَيْهَا
 فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْنَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ ، هذا ما كُنَزْتُمْ
 لَأَنْفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) (٧) . وكثيرٌ مِنَ الآيِ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْأَمْرِ
 بِالْإِيتَاءِ والإِعْطَاءِ ، وذَمٌّ مَنْ تَرَكَ ذَلِكَ ، كُلُّهُ ذَمٌّ لِلْبَخْلِ (١٩ ب) .

[ذم الجبن]

وكذلك ذمّه للجبن كثير ، في مثل قوله : (وَمَنْ يُؤَلَّهْمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ

(١) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١٨٠ .

(٢) سورة النساء ، ٤ ، الايات ٣٦ ، ٣٧ ، وفي « ف » خطأ في رقم السورة والاية .

(٣) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ٥٤ .

(٤) سورة التوبة ، ٩ ، الايات ٧٦ ، ٧٧ .

(٥) سورة محمد ، ٤٧ ، الآية ٣٨ .

(٦) سورة الماعون ، ١٠٧ ، الآية ٤ . والماعون : المعروف ،

(٧) سورة التوبة ، ٩ ، الايات ٣٤ ، ٣٥ .

إلا متحرّفاً لقتال ، أو متحيّزاً الى فئة ، فقد باءَ بغَضَبٍ من الله ، ومأواه جهنّم وبئس المصير (١) ، وقوله عن المنافقين : (ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرّقون . لو يحدون ملجأً أو مَنَارَاتٍ أو مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ ، وهم يَخْمَحُونَ) (٢) ، وقوله : (فإذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنْظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ) (٣) ، وقوله : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً . وَقَالُوا : رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ . قُلْ : مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ، وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا) (٤) .

وما في القرآن من الحُصْ على الجهاد والترغيب فيه ، وذمّ الناكِلين عنه والتاركين له ، كلّ ذمّ للجبن .

[لا يتم صلاح بني آدم إلا بالشجاعة والكرم]

ولمّا كان صلاحُ بني آدم لا يتمّ في دينهم ودنياهم ، إلا بالشجاعة والكرم ، بيّن الله سبحانه أنّه مَنْ تَوَلَّى عَنْهُ ، بترك الجهاد بنفسه ، أبدل الله به مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ . وَمَنْ تَوَلَّى عَنْهُ ، بإتفاق ماله ، أبدل الله به مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ .

(١) سورة الأنفال ، ٨ ، الآية ١٦ .

(٢) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ٥٦ ، ٥٧ .

(٣) سورة محمد ، ٤٧ ، الآية ٢٠ .

(٤) سورة النساء ، ٤ ، الآية ٧٧ .

فقال : (يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ (٢٠ ت) أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ، وقال تعالى : (ها أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ، وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ . وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (٢) .

وبالشجاعة والكرم في سبيل الله فَضَّلَ اللَّهُ السَّابِقِينَ ، فقال : (لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ، أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةٍ مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا ، وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) (٣) .

وقد ذكر الجهاد بالنفس والمال في سبيله ، ومدحه في غير آية من كتابه . وذلك هو الشجاعة والسباحة في طاعته سبحانه ، فقال : (كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ؟ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (٤) ، وقال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ، وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) (٥) .

(١) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ٣٨ و ٣٩ .

(٢) سورة محمد ، ٤٧ ، الآية ٣٨ .

(٣) سورة الحديد ، ٥٧ ، الآية ١٠ .

(٤) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ٢٤٩ .

(٥) سورة الأنفال ، ٨ ، الآية ٤٥ ، ٤٦ .

[ما هي الشجاعة]

والشجاعة ليست هي قوّة البدن . فقد يكون الرجل قويّ البدن ضعيف القلب . وإنما هي قوّة القلب وثباته . فإنّ القتال مداره على قوّة البدن ، وصنعتُه للقتال ، وعلى قوّة القلب وخبرته به .

والحمودُ منها ما كان بعلمٍ ومعرفة ، دون التهور الذي لا يفكّر صاحبه ، ولا يميّز بين الحمود والمذموم (٢٠ ب) . ولهذا كان القويّ الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب حتى يفعل ما يصلح دون ما لا يصلح . فأما المغلوب حين غضبه فليس هو بشجاع ولا شديد .

[عودة الى الصبر وانواعه]

وقد تقدّم أنّ جماع ذلك هو الصبر ، فإنّه لا بُدّ منه .

والصبر صبران : صبرٌ عند الغضب ، وصبر عند المصيبة . كما قال الحسن رحمه الله : « ما تجرّع عبدٌ جرعةً أعظم من جرعةٍ حَلِمَ عند الغضب ، وجرعةٍ صبر عند المصيبة » . وذلك لأن أصل ذلك هو الصبر على المؤلم . والشجاعُ الشديد^(١) هو الذي يصبر على المؤلم .

والمؤلم إن كان مما يُمكن دفعه أثارَ الغضب ، وإن كان مما لا يُمكن دفعه أثارَ الحزن . ولهذا يحمرُّ الوجهُ عند الغضب لشوَران الدم عند استئثار القدرة ، ويصفّرُ عند الحزن لغوَر الدم عند استئثار العجز .

(١) ف : « وهذا هو الشجاع الشديد ... »

ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عبد الله ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال النبي ﷺ : « ما تعدّون الرقوبَ فيكم ؟ قالوا : الرقوب الذي لا يولد له . قال : ليس ذاك بالرقوب ، ولكن الرقوب الرجل الذي لم يقدّم من ولده شيئا . ثم قال : ما تعدّون الصُرعةَ فيكم ؟ قلنا : الذي لا يصرعه الرجال . فقال : ليس بذلك ، ولكن الصُرعة هو الذي يملك (٢١ آ) نفسه عند الغضب » (١) .

فذكر ما يتضمّن الصبر عند المصيبة ، والصبر عند الغضب .

قال الله تعالى في المصيبة : (وبشّر الصابرين ، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون) (٢) .

وقال تعالى في الغضب : (وما يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وما يُلْقَاهَا إِلَّا ذو حظٍ عظيم) (٣) .

وهذا الجمع بين صبر المصيبة وصبر الغضب نظير الجمع بين صبر المصيبة وصبر النعمة ، كما في قوله تعالى : (ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليكفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولنّ : ذهب السيئات عني ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير) (٤) ، وقال : (لكن لا

(١) انظر صحيح مسلم ٢٠١٤/٤ ، الحديث ١٠٦ .

(٢) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١٥٥ و ١٥٦ .

(٣) سورة فصلت ، ٤١ ، الآية ٣٥ .

(٤) سورة هود ، ١١ ، الايات ٩ - ١١ .

تَأْسُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ (١) .

وبهذا وصف كعب بن زُهَيْر مَنْ وصفه من الصحابة المهاجرين ، رضي الله عنهم ، حيث قال (٢) :

لا يفرحون إذا نالت سيوفهم (٣) قوماً ، وليسوا مجازيعةً إذا نيلوا

وكذلك قال حسان بن ثابت في وصفه الأنصار رضي الله عنهم (٤) :

لَا فَخْرَ إِنَّمَا أَصَابُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ وَإِنْ أَصِيبُوا فَلَا خُورَ وَلَا هَلَجَ (٥)

وقال بعض العرب في صفة النبي ﷺ : « يَغْلِبُ فَلَا يَنْطَرُ ، وَيُغْلَبُ فَلَا يَضْجُر » (٢١ ب) .

[النهي عند تعدي الحدود]

ولما كان الشيطان يدعو الناس ، عند هذين النوعين ، الى تعدي الحدود بقلوبهم ، وأصواتهم ، وأيديهم ، نهى النبي ﷺ عن ذلك ، فقال لما قيل له : وقد بكى لما رأى ابراهيم في السَّزْعِ : « أتبكي وأنتَ تَنْهَى عَنِ الْبُكَاءِ ؟ فقال : إِنَّمَا نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحَقَّيْنِ فَاجِرَيْنِ : صوتٌ عند نعمة : هو

(١) سورة الحديد ، ٥٧ ، الآية ٢٣ .

(٢) البيت من قصيدة « بانت سعاد » . انظر شرح ديوان كعب ص ٢٥ .

(٣) في شرح ديوان كعب « رماحهم » .

(٤) انظر ديوان حسان (تحقيق سيد حنفي حسنين) ، ص ٢٣٩ .

(٥) هذه رواية الطبري ، وفي الديوان « .. فلا خور ولا جزع » .

ولعب ، ومزمار شيطان ، وصوتٌ عند مصيبة : لطمُ خدود ، وشقَّ جيوب ، ودُعاء بدعوى الجاهلية ^(١) . فجمع بين الصوتين .

وأما نهيه عن ذلك في المصائب ، فمثل قوله ﷺ : « ليس منا من لطم الحدود ، وشقَّ الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » ^(٢) . وقال : « أنا بري من الحالقة ، والصالقة ، والشاقة » ^(٣) ، وقال : « إنَّ الله لا يؤاخذ على دمع العين ولا حزن القلب ، لكنَّ يعذب بهذا أو يرحم . وأشار الى لسانه ^(٤) ، وقال : « مَنْ نِيحَ عليه ، فَإِنَّهُ يُعَذَّبُ بما نِيحَ عليه ^(٥) » .

واشترط على النساء في البيعة « أن لا ينحن » . وقال : « إنَّ النائحة إذا لم تَتَّبِ قبل موتها ، فَإِنَّهَا تُلَبَّسُ يوم القيامةِ درعاً من جَرَبٍ ، وسِرِّبالاً من قَطِران » ^(٦) .

فالنبي ﷺ ذكر الصوتين الأحقين الفاجرين . الصوت الذي يوجب

(١) انظر البخاري في كتاب الجنائز .

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : ليس منا من ضرب الحدود ٧٣/٢ .

(٣) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : ما ينهى من الخلق عند المصيبة ، ٧٣/٢ ، ولفظه : إن رسول الله بريء من الصالقة والخالقة والشاقة » ، والصلق : رفع الصوت الشديد ، يريد رفعه في المصائب ..

(٤) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : البكاء عند المريض ٧٤/٢ وفيه « .. ان الله لا يعذب بدمع العين ولا يحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا - وأشار الى لسانه - أو يرحم » .

(٥) رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب : ما يكره من النياحة على الميت ٧٢/٢ .

(٦) رواه مسلم في كتاب الجنائز ، باب التشديد في النياحة ، الحديث ، ٢٩ ، ٦٤٤/٢ .

الاعتداء في الفرح حتى يصير الانسان فرحاً فخوراً ، والصوت الذي يوجب الجزع عند الحزن ، حتى يصير الانسان هلوعاً جزوعاً .

وأما الصوت الذي يُثير الغضب لله ، (٢٢٢) فكالأصوات التي تُقال في الجهاد : من الأشعار المنشدة . فتلك لم تكن بآلات . وكذلك اصوات الشهرة في الفرح ، فرخص منها فيما وردت به السنة : من الضرب بالدّف في العرس ، والأفراح للنساء والصبيان .

وعامةُ الأشعار التي تنشد بالأصوات لتحريك النفوس هي من هذه الأقسام الأربعة . وهي التشبيب ، وأشعار الغضب والحمية ، وهي الحماسة ، والهجاء ، وأشعار المصائب كالمراثي ، وأشعار النعم والفرح وهي المدائح .

والشعراء جرت عادتهم أن يمشوا مع الطبع ، كما قال الله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ؟) (١) ، ولهذا أخبر أنهم يتبعهم الغاوون . والغاوي هو الذي يتبع هواه بغير علم . وهذا هو الغي ، وهو خلاف المهتدي . كما أن الضالّ هو الذي لا يعلم مصلحته وهو خلاف المهتدي . قال سبحانه : (والنجم إذا هوى ، ما ضلّ صاحبكم وما غوى) (٢) فهذا قال رسول الله ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » (٣) .

(١) سورة الشعراء ، ٢٦ ، الآية ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) سورة النجم ، ٥٣ ، الآية ١ - ٢ .

(٣) رواه ابن ماجه في المقدمة ، ولفظه : « ... فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين . عضوا عليها بالنواجذ ... » ١٦/١ ، الحديث ٤٣ .

فلهذا تجدهم يمدحون جنس الشجاعة وجنس السباحة ، إذْ كان عدم هاذين مذموماً على الإطلاق . وأمّا وجودهما ففيه تحصيل مقاصد النفوس على الإطلاق ، لكن العاقبة في ذلك للمتقين ، وأمّا غير المتقين فلهم عاقلةٌ لا عاقبة .

والعاقبةُ ، وإنْ كانت في الآخرة ، فتكون في الدنيا أيضاً . كما قال تعالى لما ذكر قصّة نوح (٢٢ ب) ونجّاه بالسفينة : (قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ، وَأُمَّمٌ سَنُتَّبِعُهُمْ ، ثُمَّ يَكْسِبُهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ - الى قوله : فاصبرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (١) . وقال الله تعالى : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله ، واعلموا أنّ الله مع المتقين) (٢) .

[الممدود من الحمية والشجاعة]

والفرقان أن يحمّد من ذلك ما حمده الله ورسوله . فإن الله تعالى هو الذي حمده زينٌ ، وذمّه شينٌ ، دون غيره من الشعراء والخطباء وغيرهم ، ولهذا لما قال القائل من بني تميم للنبي ﷺ : « إن حمدي زينٌ ، وذمّي شينٌ » قال له : « ذاك الله » .

والله سبحانه حمّد الشجاعة والسباحة في سبيله ، كما في « الصحيح » عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : « قيل لرسول الله ﷺ : الرجلُ

(١) سورة هود ، ١١ ، الآية ٤٨ و ٤٩ .

(٢) سورة البقرة ، ٢ ، ١٩٤ .

يُقاتل شجاعةً ، ويُقاتل حميةً ، ويُقاتل رياءً ، فأَيُّ ذلك في سبيل الله ؟
 فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، فهو في سبيل الله ، ^(١) ، وقد
 قال الله سبحانه : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله
 لله) ^(٢) ، لأن هذا هو المقصود الذي خلق الله الخلق له ، كما قال تعالى :
 (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) ^(٣) .

فكلُّ ما كان لأجل الغاية (٢٣) التي 'خلق لها الخلق' كان محموداً عند
 الله ، وهو الذي يبقى لصاحبه وينفعه الله به ، وهذه هي الأعمال الصالحة .
 ولهذا كان الناس أربعة أصناف :

مَنْ يعمل لله بشجاعةٍ وسماحةٍ ، فهو لاء هم المؤمنون المستحقون للجنة .
 وَمَنْ يعمل لغير الله بشجاعةٍ وسماحةٍ ، فهذا ينتفع بذلك في الدنيا ،
 وليس له في الآخرة من خلاق .

وَمَنْ يعمل لله ، لكن لا بشجاعة ولا بسماحة . فهذا فيه من النفاق ونقص
 الإيمان بقدر ذلك . وَمَنْ لا يعمل لله ، ولا فيه شجاعة ولا سماحة ، فهذا
 ليس له دنيا ولا آخرة .

(١) رواه ابن ماجه في كتاب الجهاد ، باب النية في القتال ٩٣١/٢ ، الحديث ٢٧٨٣ -
 ورواه مسلم في كتاب الإمارة ، باب من قاتل لتكون كلمة الله العليا ، ١٥١٣/٣ ، الحديث
 . ١٥٠

(٢) سورة الأنفال ، ٨ ، الآية ٣٩ .

(٣) سورة الذاريات ، ٥١ ، الآية ٥٦ .

[الاخلاق التي يحتاج اليها المؤمن]

فهذه الأخلاق والأعمال ' يحتاج' اليها المؤمن' عموماً ، وخصوصاً في أوقات المحن والفتن الشديدة . فإنهم يحتاجون الى صلاح نفوسهم عند مقتضى الفتنة عندهم . ويحتاجون ايضاً الى أمر غيرهم ونهيه بحسب قدرتهم . وكل من هذين الأمرين فيه من الصعوبة ما فيه ، وإن كان يسيراً على من يسره الله عليه .

وهذا لأن الله أمر المؤمنين بالايان والعمل الصالح ، وأمرهم بدعوة الناس وجهادهم على الايمان والعمل الصالح ، ولكنهم كما قال الله تعالى : (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الذين إن مكنتهم في الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر ، والله عاقبة الأمور) (١) . وكما قال إننا لننصر رؤسنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا (٢٣ ب) ، ويوم يقوم الأشهاد) (٢) ، وكما قال : (كتب الله لأغلبن أنا ورؤسلي . إن الله قوي عزيز) (٣) . وكما قال : (وإن جندنا لهم الغالبون) (٤) .

[التمثل بالخوف من الفتنة ، لترك الأمر بالمعروف ..]

ولما كان في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والجهاد في سبيل الله من

(١) سورة الحج ، ٢٢ ، الآية ٤٠ ، ٤١ .

(٢) سورة غافر ، ٤٠ ، الآية ٥١ .

(٣) سورة المجادلة ، ٥٨ ، الآية ٢١ .

(٤) سورة الصافات ، ٣٧ ، الآية ١٧٣ .

الابتلاء والمحَن ما يتعرض به المرءُ للفتنة ، صار في الناس من يتعلَّل لتروك
ما وجب عليه من ذلك بأنه يطلب السلامة من الفتنة . كما قال الله تعالى عن
المنافقين : (ومنهم مَنْ يَقُولُ : ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي . أَلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا) (١) الآية .

وقد ذكروا في التفسير (٢) أنها نزلت في الجَدِّ بن قَيْس لما أمره
النبي ﷺ بالتجهز لغزو الروم . وأُظِنَّ أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال له : « هل
لك في نساء بني الأصفر ؟ فقال : يا رسول الله ، إني رجلٌ لا أُصبرُ عن النساء ،
وإني أخافُ الفتنة بنساء بني الأصفر ، فائذن لي ، ولا تفتنني » (٣) .

وهذا الجدُّ هو الذي تخلَّف عن بَيْعَةِ الرضوان تحت الشجرة ، واستتر
يحملٍ أحمر (٤) . وجاء فيه الحديث : « كلَّتهم مغفورٌ له » ، إلَّا صاحب الجمل
الأحمر . فأنزل الله تعالى فيه : (ومنهم مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ، وَلَا تَفْتِنِّي ،
أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) .

يقولُ : إنه طلب القعود ليسلم من فتنة النساء ، فلا يفتن بهنَّ ، فيحتاج إلى

(١) سورة التوبة ، ٩ ، الآية ٤٩ .

(٢) انظر تفسير القرطبي ١٥٨/٨ .

(٣) الذي في سيرة ابن هشام ١٥٩/٤ : « فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجد بن قيس ،
أحد بني سلمة : يا جد ، هل لك في جلد بني الأصفر ؟ فقال يا رسول الله ، أو تأذن لي ولا
تفتني ، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشدَّ عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت
نساء بني الأصفر أن لا أُصبر . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت لك .
ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية .. الخ » .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ٣٠/٣ .

الاحتراز من المخطور ومجاهدة نفسه عنه . فيتعذب بذلك ، أو يواقعه فيأثم .
فإنَّ مَنْ رأى الصورة الجميلة وأحبَّها ، فإنَّ لم يتمكن منها - إما لتحريم
الشارع ، وإما للمعجز عنها - يُعذب قلبه ، (٢٤٤) وإن قدر عليها وفعل
المخطور هلك . وفي الحلال من ذلك من معالجة النساء ما فيه بلاء .

فهذا وجه قوله « ولا تفتنني » ، فقال الله تعالى : (ألا في الفتنة
سقطوا) . يقول : إنَّ نفس إعراضه عن الجهاد الواجب ، ونكوله عنه ،
ضعف إيمانه ، ومرض قلبه ، الذي زين له ترك الجهاد : فتنة عظيمة قد
سقط فيها . فكيف يطلب التخلص من فتنة صغيرة لم تُصيبه بوقوعه في فتنة
عظيمة قد أصابته ؟ والله تعالى يقول : (وقاتلوم حتى لا تكون فتنة ،
ويكون الدين كله لله) (١) . فمن ترك القتال الذي أمر الله به لئلا تكون
فتنة ، فهو في الفتنة ساقط ، ربما وقع فيه من ريب قلبه ، ومرض فؤاده ،
وترك ما أمره الله به من الجهاد .

فتدبر هذا ، فإنه مقام خطر . والناس فيه على قسمين : (٢) .

قسم يأمرؤون وينهون ويقاتلون طلباً لإزالة الفتنة - زعموا - ، ويكون
فعلهم ذلك أعظم فتنة ، كالمقاتلين في الفتن الواقعة بين الأمة مثل الخوارج .

وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله ،

(١) سورة الأنفال ، ٨ ، الآية ٢١ .

(٢) ف « الناس فيه ثلاثة أقسام » .

وتكون كلمة الله هي العليا ، لثلا يُفْتَنُوا ، وهم قد سقطوا في الفتنة .

وهذه الفتنة المذكورة في سورة « براءة » دخل فيها الافتتان بالصور الجميلة ، فإنها سبب نزول الآية . وهذه حال كثير من المتدينّة ، يتركون ما يجب عليهم من أمرٍ ونهيٍ وجهادٍ ، يكونُ به الدينُ كلّه لله ، وتكون به كلمة الله هي العليا ، لثلا يفتنوا بحسب الشهوات ، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منها (٢٤ ب) .

وإنما الواجب عليهم القيام بالواجب من الأمر والنهي وترك المحظور ، والقيام بالواجب وترك المحظور متلازمان ^(١) ، لكون نفوسهم لا تطاوعهم إلّا على فعلها جميعاً أو تركها جميعاً ، مثل كثير ممن يحبّ الرياضة ، أو المال ، أو شهوات الغي ، فإذا فعل ما وجبَ عليه من أمرٍ ونهيٍ وجهادٍ وإمارة ونحو ذلك فلا بُدّ أن يفعل معها شيئاً من المحظورات ، فالواجبُ عليه حينئذ أن ينظر أغلب الأمرين . فإن كان المأمور أعظم أجراً من ترك ذلك المحظور ، لم يترك ذلك ، لما يخاف من أن يقترن به ما هو دونه في المفسدة . وإن كان ترك المحظور أعظم أجراً ، لم يفوّت ذلك برجاء ثواب فعلٍ واجب يكون بما يجتمع له من الأمرين من الحسنات والسيئات . فهذا هذا . وتفصيل ذلك بطول .

[لا بد لكل انسان من الأمر والنهي]

وكلّ بشر على وجه الأرض فلا بُدّ له من أمرٍ ونهي . ولا بُدّ أن يؤمر

(١) ف « متلازم » .

وَيُنْهَى ، حَتَّى لَوْ أَنَّتَ وَحْدَكَ لَكَانَ بِأَمْرِ نَفْسِهِ وَبَيْنَاهَا : إِمَّا بِمَعْرُوفٍ ، وَإِمَّا بِمُنْكَرٍ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ (١)) .

فَإِنَّ الْأَمْرَ هُوَ طَلَبُ الْفِعْلِ وَإِرَادَتُهُ . وَالنَّهْيُ طَلَبُ التَّارِكِ وَإِرَادَتُهُ .

[بَنُو آدَمَ لَا يَعِيشُونَ إِلَّا بِالْاجْتِمَاعِ]

وَلَا بُدَّ لِكُلِّ حَيٍّ مِنْ إِرَادَةٍ وَطَلَبٍ فِي نَفْسِهِ يَقْتَضِي بِهَا فِعْلَ نَفْسِهِ ، وَيَقْتَضِي بِهَا فِعْلَ غَيْرِهِ إِذَا أُمِكنَ ذَلِكَ . فَإِنَّ الْإِنْسَانَ حَيٌّ يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَتِهِ ، وَبَنُو آدَمَ لَا يَعِيشُونَ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ .

وَإِذَا اجْتَمَعَ اثْنَانِ فَصَاعِدًا (٢٥٠) فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا اثْتَارٌ بِأَمْرٍ ، وَتَنَاهٍ عَنْ أَمْرٍ . وَلِهَذَا كَانَ أَقَلُّ الْجَمَاعَةِ فِي الصَّلَاةِ اثْنَانِ ، كَمَا قِيلَ : الْإِثْنَانُ فَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ . وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ ذَلِكَ اشْتِرَاكًا فِي مَجَرَّدِ الصَّلَاةِ حَصَلَ بَاثْنَيْنِ ، أَحَدُهُمَا إِمَامٌ وَالْآخَرُ مَأْمُومٌ . كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِمَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ وَصَاحِبِهِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : « إِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَأَذِّنَا وَأَقِيَا ، وَلْيُؤَمِّكُمَا أَكْبَرُكُمَا » (٢) . وَكَانَا مَتَقَارِبَيْنِ فِي الْقِرَاءَةِ .

وَأَمَّا فِي الْأُمُورِ الْعَادِيَةِ فَفِي السَّنَنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَحِلُّ لثَلَاثَةٍ يَكُونُونَ فِي سَفَرٍ إِلَّا أَمَرُوا عَلَيْهِمْ أَحَدَهُمْ » (٣) .

(١) سُورَةُ يُوسُفَ ، ١٢ ، آيَةُ ٥٣ .

(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةِ ، بَابُ : مَنْ أَحَقَّ بِالْإِمَامَةِ ، ٤٦٦/١ ، الْحَدِيثُ ٢٩٣ .

(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْجِهَادِ وَلَفْظُهُ : « إِذَا خَرَجَ ثَلَاثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ » .

[الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم ، فلا بد من الأمر
بالمعروف الذي أمر به الله ورسوله ...]

وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم ، فَمَنْ لم يأمر بالمعروف
الذي أمر به الله ورسوله ، وينهى عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله ،
ويؤمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله ، وينهى عن المنكر الذي نهى
الله عنه ورسوله - وإلا فلا بُدَّ من أن يأمر وينهى ، ويؤمر وينهى إمّا بما
يصاد ذلك ، وإمّا بما يشترك فيه الحق الذي أنزله الله بالباطل الذي لم يُنزل
الله . وإذا اتخذ ذلك ديناً كان ديناً مُبتدعاً ضالاً باطلاً . وكما أن كل بشرٍ
هو حي متحرك بإرادته ، هُنا حارث ، فَمَنْ لم تكن نيته وعمله عملاً
صالحاً لوجه الله ، كان عمله عملاً فاسداً أو لغير وجه الله ، وهو الباطل . كما
قال تعالى : (إن سعيكم لشتى ^(١)) .

وهذه الأعمال (٢٥ ب) كلها باطلة من جنس أعمال الكفار (الذين
كفروا وصدّوا عن سبيل الله ، أضلّ أعمالهم) ^(٢) ، وقال تعالى : (والذين
كفروا ، أعمالهم كسرّابٍ بقيعةٍ يحسبُهُ الظّمان ماءً ، حتى إذا جاءه لم
يجده شيئاً ، ووجد الله عنده فوفّاه حسابه ، والله سريعُ الحساب) ^(٣) ،
وقال : (وقدّمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً) ^(٤) .

[من هم أولو الأمر الذين يأمرون بالمعروف]

وعند أمر الله تعالى في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من

(١) سورة الليل ، ٩٢ ، الآية ٤ .

(٢) سورة محمد ، ٤٧ ، الآية ١ .

(٣) سورة النور ، ٢٤ ، الآية ٣٩ .

(٤) سورة الفرقان ، الآية ٢٣ .

المؤمنين ، كما قال تعالى : (يا أيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (١) .

وأولو الأمر : أصحاب الأمر وذووه . وهم الذين يأمرون الناس وينهونهم ، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة ، وأهل العلم والكلام .

فلهذا كان أولو الأمر صنفَيْن : العلماء والأمرء . فإذا صلحوا صلح الناس ، وإذا فسدوا فسد الناس . كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه للأحمية لما سألته : ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح ؟ قال : ما استقامت لكم أئمتكم .

ويدخلُ فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان . وكلُّ مَنْ كان متبوعاً فهو من أولي الأمر .

وعلى كلِّ واحدٍ من هؤلاء أن يأمر بما أمرَ الله به ، وينهى عما نهى الله عنه . وعلى كلِّ واحدٍ يمتن عليه طاعته (٢٦) أن يطيعه في طاعة الله ولا يطيعه في معصية الله ، كما قال أبو بكر الصديق ، رضي الله عنه ، حين تولّى أمر المسلمين وخطبهم فقال في خطبته :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، الْقَوِيُّ فِيكُمْ الضَّعِيفُ عِنْدِي حَقٌّ آخِذٌ مِنْهُ الْحَقُّ . أَطِيعُونِي مَا أَمَرْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ » (٢) .

(١) سورة النساء ، ٤ ، الآية ٥٩ .

(٢) انظر هذه الخطبة في جبهة خطب العرب ١/٦٧ ، والمصادر المذكور هناك .

فصل

[لا بد في جميع الحسنات ان يراد بها وجه الله]

وإذا كانت جميع الحسنات لا بُدَّ فيها من شيئين : أن يُرادَ بها وجه الله ، وأن تكون موافقةً للشريعة ، فهذا في الأقوال والأفعال ، في الكَلِمِ الطيبِ والعمل الصالح ، في الأمور العلمية والأمور العملية المبادية . ولهذا ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّ أَوَّلَ ثَلَاثَةٍ تُسْعَرُ^(١) بِهِمْ جَهَنَّمَ رَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ وَأَقْرَأَهُ لِقَوْلِ النَّاسِ : هُوَ عَالِمٌ وَقَارِيءٌ . وَرَجُلٌ جَاهِدَ وَقَاتَلَ لِقَوْلِ النَّاسِ : هُوَ شَجَاعٌ وَجَرِيءٌ . وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ وَأَعْطَى ، لِقَوْلِ النَّاسِ : هُوَ جَوَادٌ وَسَخِيٌّ^(٢) . فَإِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ يَرِيدُونَ الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ هُمْ بَازَاءُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ بَعْدَ النَّبِيِّينَ : مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

فَإِنْ مَنْ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ ، وَعَلَّمَهُ لَوَجْهِ اللَّهِ ، كَانَ صِدِّيقًا . وَمَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ الْعُلْيَا وَقُتِلَ كَانَ شَهِيدًا ، وَمَنْ تَصَدَّقَ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ كَانَ صَالِحًا .

ولهذا يسأل المفرطُ في ماله الرجعةَ وقتَ الموت ، كما قال ابنُ عباس ،

(١) ف « تسجر » .

(٢) رواه الترمذي ، أبواب الزهد ، باب ما جاء في الرياء والسُّمعة ١١٢/٧ - ١١٤ : ومسلم في كتاب الامارة ، باب من قاتل للرياء والسُّمعة استحق النار ، ١٥١٣/٣ - ١٥١٤ . ونص الحديث فيها أطول .

رضيَ الله (٢٦ ب) عنها : « مَنْ أُعْطِيَ مَالاً فَلَمْ يَحْجِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُزَكَّ ، سَأَلَ الرَّجْعَةَ وَقَتَ الْمَوْتِ ، وَقَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ : رَبِّ ، لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ، فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) (١) ، ففِي هَذِهِ الْأُمُور الْعَلَمِيَّةِ الْكَلَامِيَّةِ يَحْتَاجُ الْأَمْرُ أَنْ يَكُونَ مَا يُخْبِرُ بِهِ عَنْ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَا كَانَ وَيَكُونُ ، صَوَاباً : وَمَا يَأْمُرُ بِهِ وَمَا يَنْهَى عَنْهُ كَمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ عَنْ اللَّهِ . هَذَا هُوَ الصَّوَابُ الْمَوَافِقُ لِلسُّنَّةِ وَالشَّرِيعَةِ ، الْمُتَّبِعُ لِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ .

كَمَا أَنَّ الْعِبَادَاتِ الَّتِي تَتَعَبَّدُ بِهَا إِذَا كَانَتْ مِمَّا شَرَعَهُ اللَّهُ ، وَأَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ كَانَتْ حَقّاً صَوَاباً ، مُوَافِقاً لِمَا بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ ، وَمَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ مِنَ الْقَسَمَيْنِ كَانَ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْبَدْعِ الْمُضِلَّةِ وَالْجَهْلِ . وَإِنْ كَانَ يُسَمِّيهِ مَنْ يُسَمِّيهِ : عُلُوماً وَمَعْقُولَاتٍ وَعِبَادَاتٍ وَمَجَاهِدَاتٍ وَأَذْوَاقاً وَمَقَامَاتٍ .

وَيَحْتَاجُ أَيْضاً أَنْ يَأْمُرَ (٢) بِذَلِكَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَيَنْهَى عَنْهُ لِنَهْيِ اللَّهِ ، وَيُخْبِرُ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ ، لِأَنَّهُ حَقٌّ وَإِيمَانٌ وَهُدًى ، كَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ . كَمَا تَحْتَاجُ الْعِبَادَةُ إِلَى أَنْ يُقْصَدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ . فَإِذَا قِيلَ ذَلِكَ لِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْهَمِيَّةِ ، أَوْ لِإِظْهَارِ الْعِلْمِ وَالْفَضِيلَةِ ، أَوْ لَطَلْبِ السَّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ ، كَانَ بِمَنْزِلَةِ الْمُقَاتِلِ شَجَاعَةً وَحَمِيَّةً وَرِيَاءً .

وَمِنْ هُنَا يَتَبَيَّنُ لَكَ (٢٧ آ) مَا وَقَعَ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْمَقَالِ ، وَأَهْلِ الْعِبَادَةِ وَالْحَالِ . فَكَثِيرٌ مَا يَقُولُ هَؤُلَاءُ مِنَ الْأَقْوَالِ مَا هُوَ خِلَافُ

(١) سُورَةُ « الْمُنَافِقُونَ » ، ٦٣ ، آيَةُ ١٠ .

(٢) ف « يَأْمُرُ .. يُنْهَى » .

الكتاب والسنة ، أو ما يتضمن خلاف السنة ووافقها . وكثيراً ما يتعبد هؤلاء بعبادات لم يأمر الله بها ، بل قد نهى عنها . أو ما يتضمن مشروعاً محظوراً . وكثيراً ما يُقاتل هؤلاء قتالاً مخالفاً للقتال المأمور به ، أو متضمناً للمأمور به ومحظور .

ثم كل من الأقسام الثلاثة : المأمور به ، والمحظور ، والمشتمل على الأمرين قد يكون لصاحبه نية حسنة ، وقد يكون متبعاً لهواه ، وقد يجتمع له هذا وهذا .

فهذه تسعة أقسام في هذه الأمور . وفي الأموال المنفقة عليها من الأموال السلطانية : الفية وغيره ، والأموال الموقوفة ، والأموال الموصى بها ، والمنذورة ، وأنواع العطايا ، والصدقات ، والصلات . وهذا كله من لبس الحق بالباطل ، وخلط عمل صالح وآخر سيء .

والسيء من ذلك قد يكون صاحبه غلطاً أو ناسياً فهو مغفور له ، كالمجتهد المخطيء الذي له أجر ، وخطيئته مغفور له . وقد يكون صغيراً مكفراً باجتناب الكبائر ، وقد يكون مغفوراً بتوبة ، أو بحسنات تمحو السيئات ، أو مكفراً بمصائب الدنيا ، ونحو ذلك .

إلا أن دين الله الذي أنزل به كتبه ، وبعث به رسله ، ما تقدم : من إرادة الله وحده بالعمل الصالح (٢٧ ب) .

[لا يقبل الله من أحد غير الاسلام]

وهذا هو الاسلام العام الذي لا يقبل الله من أحد غيره . قال تعالى :

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (١) ، وقال تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ . لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ) (٢) .

[معاني الاسلام]

والاسلام يجمع معنيين. أحدهما الاستسلام والانقياد، فلا يكون منكبراً. والثاني : الاخلاص ، من قوله تعالى : (وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ) (٣) فلا يكون مشتركاً، وهو أن يُسلم العبدُ لله ربّ العالمين . كما قال تعالى : (وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلَمْ . قَالَ : أَسَلْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ) (٤) ، وقال تعالى : (قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . دِينًا قَبِيماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) (٥) .

والاسلام يُستعمل لازماً معدّي بحرف اللام ، مثلما ذكر في هذه الآيات . ومثل قوله تعالى : (وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ

(١) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ٨٥ .

(٢) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ١٨ - ١٩ .

(٣) سورة الزمر ، ٣٩ ، الآية ٢٩ ، ولفظاً معناها خالفاً .

(٤) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١٣٠ - ١٣٢ .

(٥) سورة الأنعام ، ٦ ، الآيات ١٦١ - ١٦٣ .

العذاب ، ثم لا تُنصرون (١) ، ومثل قوله تعالى : (قالت ربّ إنّي ظلمت نفسي (٢٨ آ) وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) (٢) ، ومثل قوله تعالى : (أفتغير دين الله يبغون ، وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) (٣) . ومثل قوله تعالى : (قل أنشدوا من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونردّ على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟ كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران ، له أصحاب يدعونه الى الهدى أئتنا . قل إن هدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين) (٤) .

وُستعمل متعدّياً مقروناً بالإحسان . كقوله تعالى : (وقالوا لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً أو نصارى . تلك أمانيتهم . قل : هاؤا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى ، من أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربّه ، ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) (٥) ، وقوله تعالى : (ومن أحسن ديناً بمن أسلم وجهه لله وهو محسنٌ ، واتبع ملة إبراهيم حنيفاً ، واتخذ الله إبراهيم خليلاً) (٦) فقد أنكر الله أن يكون دين أحسن من هذا الدين . وهو إسلام الوجه لله مع الإحسان . وأخبر أن كلّ من أسلم وجهه لله وهو محسنٌ فله أجره عند ربّه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

(١) سورة الزمر ، ٣٩ ، الآية ٥٤ .

(٢) سورة النمل ، ٢٧ ، الآية ٤٤ .

(٣) سورة آل عمران ، ٣ ، الآية ٨٣ .

(٤) سورة الأنعام ، ٦ ، الآية ٧١ .

(٥) سورة البقرة ، ٢ ، الآية ١١١ ، ١١٢ .

(٦) سورة النساء ، ٤ ، الآية ١٢٥ .

أثبت هذه الكلمة الجامعة ، والقضية العامة ردّاً لمزاعم مَنْ زعم أنه لا يدخل الجنة إلاّ "متهوداً أو متنصر".

[معنى اسلام الوجه لله]

وهذان الوصفان ، وهما اسلام الوجه لله ، والإحسان ، هما الأصلان المتقدمان . وهما كون العمل خالصاً لله (٣٨ ب) ، صواباً موافقاً للسنة والشريعة .

وذلك أنّ اسلام الوجه لله هو متضمنٌ القصد والنية لله ، كما قال بعضهم :

استغفر الله ذنباً لست 'مُخصيه ربّ العباد اليه الوجه والعمل'

وقد استعمل هنا أربعة ألفاظ : اسلام الوجه ، وإقامة الوجه ، وتوجيه الوجه . كقوله تعالى (وأقيموا وجوهكم عند كلّ مسجد) (١) ، وقوله تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فطَرَّةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (٢) ، وكقول الخليل عليه السلام : (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً ، وما أنا من المُشْرِكِينَ) (٣) . وكذلك كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح في صلاته من الليل : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وما أنا من المُشْرِكِينَ »

(١) سورة الأعراف ، ٧ ، الآية ٢٩ .

(٢) سورة الرّوم ، ٣٠ ، الآية ٣٠ .

(٣) سورة الأنعام ، ٦ ، الآية ٧٩ .

وفي الصحيحين عن البراء بن عازب رضي الله عنهما أن النبي ﷺ علمه أن يقول إذا أوى الى فراشه : « اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك - الحديث » (١) .

فالوجه يتناول المتوجه ، بكسر الجيم ، والمتوجه ، بفتح الجيم - اليه ، ويتناول المتوجه نحوه . كما يقال : أي وجه تريد ؟ أي أي وجه وناحية تقصد . وذلك أنها متلازمان . فحيث توجه الانسان توجه وجهه ، ووجهه مستلزم لتوجهه . وهذا في باطنه وظاهره جميعاً . فهي أربعة أمور . والباطن هو الأصل ، والظاهر هو (٢٩ آ) الكمال والشعار . فإذا توجه قلبه الى شيء تبعه وجهه الظاهر .

فإذا كان العبد قصدُهُ ومُرادُهُ وتوجهُهُ الى الله ، فهذا صلاح إرادته وقصده . فإذا كان مع ذلك 'محسناً' فقد اجتمع له : أن يكون عمله صالحاً ولا 'يشرك بعبادة ربه' أحداً . وهو قول عمر رضي الله عنه : « اللهم اجعل عملي كله صالحاً ، واجعله لوجهك خالصاً ، ولا تجعل لأحدٍ فيه شيئاً » .

[تعريف العمل الصالح]

والعملُ الصالح هو الإحسان . وهو فعل الحسنات ، وهو ما أمر الله به . والذي أمر الله به هو الذي شرعهُ (٢) ، وهو الموافق لكتاب (٣) الله وسنة

(١) انظر صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء ، الحديث ٥٧ - ٢٠٨٢/٤ .

(٢) ف « شرعه الله » .

(٣) ف « لسنة الله » .

رسوله . فقد أخبر الله تعالى أن من أخلص قصده لله ، وكان محسناً في عمله ، فإنه مستحقٌ للثواب سالم من العقاب .

ولهذا كان أئمة السلف ، رحمهم الله ، يجمعون هذين الأصلين . كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى : (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ^(١) قال : « أخلصه وأصوبه . فقيل : يا أبا علي ! ما أخلصه وأصوبه ؟ فقال : إنَّ العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً ولم يُقبل . وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل ، حتى يكون خالصاً صواباً . والخالص أن يكون لله . والصواب أن يكون على السُّنة » .

وقد روى ابنُ شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبَّير قال : « لا يُقبل قولٌ إلا بعمل ، ولا يُقبل قولٌ وعمل إلا بنية ، ولا يُقبل قولٌ وعملٌ ونية إلا بموافقة السُّنة » . وروى عن الحسن البصري مثله ، ولفظه « لا يصلح مكان » لا يُقبل » .

وهذا فيه ردٌّ على المرجئة الذين يعملون (٢٩ ب) مجرد القول كافياً . فأخبر أنه لا بُدَّ من قول وعمل ، إذ الإيمان : قولٌ وعمل ، لا بُدَّ من هذين . كما قد بسطناه في غير هذا الموضع ، وبيئنا أن مجرد تصديق القلب ونطق اللسان ، مع بغض الله ولشرائعه والاستكبار على الله وشرائعه لا يكون إيماناً باتفاق المؤمنين ، حتى يقرن بالتصديق عملٌ صالح .

وأصلُّ العمل عمل القلب ، وهو الحب ، والتعظيم المنافي للبغض والاستكبار .

(١) سورة الملك ، ٦٧ ، الآية ٢ .

ثم قالوا : لا يُقبل قول وعمل إلاّ بنية ، وهذا ظاهر . فإنّ القول والعمل اذا لم يكن خالصاً لله تعالى لم يقبله الله .

ثم قالوا : ولا يُقبل قول وعملٌ ونيةٌ إلاّ بموافقة السنّة . وهي الشريعة ، وهي ما أمر الله به ورسوله ﷺ . لأنّ القول والعمل والنية الذي لا يكون مسنوناً مشروعاً ، قد أمر الله به - يكون بدعة . وكلّ بدعة ضلالة ، ليس مما يحبّه الله ، فلا يقبله الله ، ولا يصلح ، مثل أعمال المشركين وأهل الكتاب .

[معنى السنة في كلام السلف]

ولفظُ « السنّة » في كلام السلف يتناول السنّة في العبادات وفي الاعتقادات . وإنّ كان كثير ممّن صنّف في السنّة يقصدون الكلام في الاعتقادات . وهذا كقول ابن مسعود ، وأبيّ بن كعب ، وأبي الدرداء ، رضي الله عنهم : « اقتصاد في سنّة ، خيرٌ من اجتهد في بدعة » ، وأمثال ذلك . والله سبحانه وتعالى أعلم .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلّم تسليمًا .

هذا آخر كلام الشيخ رضي الله عنه .

نقله من أصل قديم الفقير لعفو ربه موهوب بن احمد بن هلال الصالح الحنبلي غفر الله له ذنوبه بمنه وكرمه . ووافق الفراع منه سلخ سنة اربعين وثمانماية بالمدرسة الجوزية بدمشق .

والحمد لله رب العالمين ، وهو حسبي ونعم الوكيل .

فهرس مضمونات الرسالة

| | |
|-------|--|
| ٨ - ٥ | مقدمة المحقق |
| ٩ | بدء الرسالة |
| ١٠ | الأمر بالمعروف عند نبينا والأنبياء السابقين |
| ١١ | هذه الأمة خير الأمم للناس |
| ١٥ | ما هو المعروف وما هو المنكر |
| ١٧ | ليكن أمرك بالمعروف ، بالمعروف |
| ١٧ | في الأمر بالمعروف لا بد أن تكون المصلحة راجحة |
| ١٨ | كيف يكون الأمر بالمعروف ... |
| ١٨ | واقع الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر |
| ٢٠ | يجب الصبر على جور الأئمة |
| ٢٠ | قتال الأئمة عند أهل السنة والمعتزلة |
| ٢٠ | القاعدة التي تتبع في الأمر والنهي |
| ٢١ | يجب رد كل شيء إلى ميزان الشريعة |
| ٢٣ | حب القلب وبغضه |
| ٢٣ | حقيقة الهوى |
| ٢٤ | إتباع الأهواء في الديانات السابقة |
| ٢٦ | حب الإنسان وبغضه يجب أن يكونا موافقين لأمر الله ورسوله |
| ٢٦ | ما هو العمل الحسن |
| ٢٨ | العمل لا يكون إلا بعلم وفقه |
| ٢٩ | لا بد في الأمر والنهي من الرفق والحلم والصبر |

| | |
|----|--|
| ٣١ | صعوبة هذه الشروط |
| ٣٢ | ما عاقب الله به الأمم السابقة لمعاصيهم |
| ٣٣ | عقوبة أهل السيئات في الدنيا والآخرة |
| ٣٦ | أول ما نزل من القرآن الوعد والوعيد |
| ٣٦ | اختلاف الناس في الأمر والنهي سبب التفرق |
| ٣٧ | المعاصي مشتبهة في الطباع |
| ٣٨ | الشح سبب الغرور |
| ٣٩ | انواع الذنوب |
| ٤٠ | استقامة امور الناس بالعدل |
| ٤٠ | طبيعة النفس : العلو والحسد والظلم |
| ٤١ | انواع الناس في ذلك |
| ٤٤ | اختلاف الأمة في المقالات والعبادات |
| ٤٧ | يجب مقابلة السيئات بالحسنات |
| ٤٨ | عظم المحنة سبب لعلو الدرجة |
| ٤٨ | لا بد من الصبر على فعل الحسن |
| ٤٩ | ولا بد من اليقين |
| ٥٠ | ذم البخل والجبن |
| ٥١ | انواع البخل |
| ٥٢ | ذم الجبن |
| ٥٣ | لا يتم صلاح بني آدم الا بالشجاعة والكرم |
| ٥٥ | ما هي الشجاعة - عود الى الصبر وأنواعه |
| ٥٧ | النهي عن تعدّي الحدود |
| ٦٠ | المحمود من الحمية والشجاعة |
| ٦٢ | الاخلاق التي يحتاج اليها المؤمن |
| ٦٢ | التعلّل بالخوف من الفتنة لترك الأمر بالمعروف |

| | | | | | | | |
|----|---|---|---|---|---|---|---|
| ٦٥ | . | . | . | . | . | . | لا بد لكل انسان من الأمر والنهي |
| ٦٦ | . | . | . | . | . | . | بنو آدم لا يعيشون الا بالاجتماع |
| ٦٧ | . | . | . | . | . | . | الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم |
| ٦٨ | . | . | . | . | . | . | من هم اولو الأمر الذين يأمرون بالمعروف |
| ٦٩ | . | . | . | . | . | . | لا بد أن يراد وجه الله في جميع الحسنات |
| ٧٢ | . | . | . | . | . | . | لا يقبل الله من أحد غير الاسلام - معاني الاسلام |
| ٧٤ | . | . | . | . | . | . | معنى اسلام الوجه لله |
| ٧٦ | . | . | . | . | . | . | تعريف العمل الصالح |
| ٧٧ | . | . | . | . | . | . | معنى السنة في كلام السلف |